القاهرة فى يوم الجمعة ١ جماد الاول سنة ١٣٥١

اللواء

لسان حال الاحزار الدستورية

٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ — ٢٧ مسرى سنة ١٩٤٨

الثمن ١٠ مليمات

الثمن ١٠ مليمات

حافظ ابراهيم

ملحق للعدد غرة (٢٨٩٤)

المرحوم محمد حافظ ابراهيم بك

بعض كتاب هذا العدد

من الكتاب

الدكتور طه حسين : الرثاء فى شعر حافظ

الاستاذ خليل مطران : ثلاث صور

الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى : يا حافظ

الاستاذ على عبد الرازق : ملاحظات بسيطة عن حافظ وشعره

الاستاذ انطون الجميل بك : البؤساء

الدكتور محمد حسين هيكل بك : حافظ ابراهيم حياة نفسه فى شعره

الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى : حافظ الرجل

حفنى بك محمود : حافظ ابراهيم

الاستاذ سامى الكيالى : أول شاعر

الحقيقة الاجتماعية — صلاته ببلاد الشام

الاستاذ احمد مخلوف : أدب حافظ

الاستاذ شوكت ثونى : للحق والتاريخ، حافظ ابراهيم

بعض كتاب هذا العدد

الاستاذ محمود سيف الدين الايرانى : العبقرية الطليقة ، حافظ ابراهيم يمثل مصر المتألمة

الاستاذ محمد عبد العزيز الازهرى : فقيد الشعر والادب

من الشعراء

الاستاذ جميل صدقى الزهاوى : مصرع الهزار (قصيدة)

الاستاذ ابراهيم زكى القاضى : حافظ بك ابراهيم (قصيدة)

الاستاذ على محمود طه المهندس : حافظ ابراهيم (قصيدة)

الاستاذ أحمد مخرم : حافظ ابراهيم (قصيدة)

الاستاذ عبد الله بن احمد بن يحيى العلوى : حضرموت تبكى شاعر النيل

الاستاذ الشاعر حبيب : وطنية حافظ (قصيدة)

الاستاذ عبد العظيم يوسف : ذكرى وفاة شاعر النيل

الاستاذ عزيز فهمى : الى روح حافظ

كلمة كلية الاداب

تذاب الشعوب المتحفزة للحرية الوثابة نحو الاستقلال — كما تلم بالافراد — نزلات من الالم تتخلل لذة الامل ، يفاجئها بها الدهر ليتخير رسوخ عزيمة أبنائها وليمتحن صدق ولائهم لوطنهم ومايطوقون به جيدهم من الشجاعة الادبية والهمة النفسية العالية ومقدار صبرهم على منازلة الطوارىء وفى هذا الاختبار تكون اجابة الامة على قيمتها من العلم والرقى ومكانتها فى الحياة والاخلاق »

« حقا ! على الرغم من معاطس الامة تنزل بها الثائرة فتهز أعصابها هزاً عنيفا تكاد قلوبها تتمزق من حرهاجزعا وتوشك أن تنشق اكبادها من هولها هلعا ولكن الامة الباسلة الناهضة بابنائها الحية برجالها لايكون هذامستكنهامهم عظم هول الخطب والا لاصبحت مثلا يضرب للخور والوهن ، وانما تتقبل المصائب بصدر رحب وجنان ثابت يذللانه ، شاحذة همتها عاجمة عيدانها لتتخذ من النكبة قوة ومن الفاجعة حياة مستمرئة تساعدها على المضى فى خطتها بشجاعة وثبات بين اكبار الامم واجلال الشعوب »

« هكذا حال مصرنا العزيزة فلقد أبت الاقدار أن يمضى عام ١٩٣٢ دون أن يترك جرحا داميا فى قلبها فحرمها شاعرها العصامى وسليلها ابنها البار المرحوم حافظ بك ابرهيم وبفقده عم الحزن أركانها وملأ الاسى جوانبها وما علم شرقى خبر الرزء الا خشع حزنا لجلاله وألمه وهيبة للارادة الربانية التى خطت لوادى النيل أن يصاب فى لوح قدرها وأشفقت به فاوحت اليه من الحكمة والرزانة مايكفل له الصبر الجميل »

« وان طلبة كلية الآداب وطالباتها الاوفى اخوانهم وأخواتهم نصيبا من الاسى والحزن على الفقيد العزيز الذى كانوا يرون فيه مورداً صافيا للادب وذخراً قويا للوطن فالى أبناء وادى النيل عامة والى أسرة جريدة السياسة الكريمة خاصة نرفع تعزيتنا ونسأل الله أن يعوضنا عنه خيرا ويفرغ على قلوبنا المكلومة صبرا يوازى المصاب وان يمطر على الفقيد سحائب رحمته ورضوانه ويسكنه فسيح جنانه انه اكرم مسئول .

عبد العزيز يونس
عن كلية الآداب بالجامعة المصرية
ميت أبو الحارث دقهلية

رثاء حافظ ابراهيم

قرأنا فى جريدة النجاح الجزائرية هذا الرثاء فرأينا أن ننقله فيما يلى :

راكب الجو ما رحمت العبادا ... ما جماداً صدعته بل فؤادا
بنداء طوى الاثير سريعا ... هز نجداً لشؤمه ووهادا
رن بالاذن ناعياً ورمانا ... بسهام البلا فدعنا السهادا
وجهلنا لما الامى أخذ النف ... س مراحاً ألفته أم ركادا

***

صاح دمك الهوى وحى تعال ... نبك ذاك الشعور بالشرق طرا
لفقيد البيان والوحى والنث ... ر جنود منى دعا تتهادى
لاى أطاعه الشعر قسرا ... والقوافى ألقت اليه القيادا
اهزار با (الازبكية) غنى ... شعب م بذى الحياة فنادى

***

لاتلوموا الغوانى شقت جيوبا ... منتهى الوجد ـ أو لبسن الحدادا
بل دعوها تعيد ضربة صدر ... وخدود على القنى والسوادا
من دعا الشرق راغباً ان يعاد ... حظ بنت وما رأى أن يعادا
من دعا الشيب والشباب ونشئا ... وفتاة الى العلى ثم قادا

***

كفنوه . وما عدلتم . . . بطرس ... واجعلوا السفر مؤنسا ووساداً
عطروه بـ (راحة النفس) مهوا ... فديما وزودوه المدادا
فسيلقى من الرجال عظاما ... (سعد) مصر و(فاضما) و(الجوادا)
فيقيموا له احتفالا عزيزاً ... شاق نفسا اليهم حسين نادى
يابلادى وداع ابن وداعا ... هذا ممرى وما الرجا ان اعادا !
وأكبروه ان صور الخفل شعرا ... فنيات من سحره واعادا

***

ريح مصر ببعد حافظ شيئا ... لاتراه من ملك شعر مشادا
لست أدرى أبعد (حافظه) انوا ... دى مضاء يحله أم رقادا
وسلاما عليك شبل حماها ... عفت أرضا فقالت : عنها البعادا !

فسنطينة
محمد خباب
الخياط العمرى

ابن خلدون

شيخ الاجتماع والفقه التاريخى

لمناسبة الدعوة الى احياء ذكرى مولده الستمائة

اقرأ تاريخ حياته وشرح نظرياته الفلسفية والتاريخية

فى كتاب

فلسفة ابن خلدون الاجتماعية

للدكتور طه حسين والاستاذ محمد عبد الله عنان

فيه ترجمة ضافية لابن خلدون وشرح علمى محدث لنظرياته فى الفلسفة والاجتماع وسياسة الملك ، ومقارنات لآرائه بآراء اقطاب الاجتماع والسياسة مثل أرسطو ومكيافللى ومونتسكيو

(ثمنه خمسة عشر قرشاً عدا البريد)

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الساحة نمرة ٣٩ ومن جميع المكتبات الشهيرة

زينب

أخلاق ومناظر ريفية

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل

(الطبعة الثالثة)

وتطلب من دار السياسة بشارع المفاخ ومن المكتبة التجارية بشارع محمد على وسائر المكاتب الشهيرة

دكتور عبد المنعم البرادعى

دبلوم ودكتوراه من جامعة برلين وشهادا
اختصاص فى الامراض الجلدية والزهر
والسيلان والشعر وحب الشباب والاورتخا والث
والسمنة ومساعد استاذ مستشفى الشارتية سابق

القاهرة ميدان توفيق نمرة ٤
٩—١٢ صباحا ٥—٧ مساءً
تليفون ٤٢٨٦١

ابراهيم الكاتب

بقلم

ابرهيم عبد القادر المازنى

فى ربعمائة صفحة

الثمن عشرة قروش غير أجرة البريد

يطلب من المؤلف بجريدة السياسة
ومن دار الترقى بشارع الساحة
و المكتبة التجارية

ديوان التحقيق (محاكم التفتيش

والمحاكمات الكبرى

للاستاذ محمد عبد الله عنان المحامى

فيه تاريخ مسهب لديوان التحقيق ونظمه ومحاكماته وبالاخص محاكمات العرب والعرب المتنصرين فى الاندلس . ثم مجموعة كبيرة من المحاكمات والقضايا الكبرى ملوكية وغيرها فى ٥٥٠ صفحة من القطع الكبير ، ومزين بخمس وخمسين صورة تاريخية طبع مطبعة دار الكتب . وثمنه ٣٥ قرشاً عدا البريد .

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة بشارع الساحة ومن المكاتب الشهيرة

السياسة — الجمعة ١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ — ٢ سبتمبر سنة ٣٢

ملحق العدد (٢٨٩٤)

السياسة

لسان حال الاحرار الدستوريين

ادارة الجريدة بشارع المناخ رقم ٣٠ التليفون رقم ٥٩٨٧٢

صاحب السياسة : محمود عبد الرازق باشا

رئيس التحرير المسؤول : ابراهيم عبد القادر المازني

تكون المراسلات باسم مدير السياسة

الدكتور محمد حسين هيكل بك

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

داخل القطر خارج القطر

الاشتراكات تدفع مقدما عن سنة ١٥٠ قرش ٣٢٠ قرش

« « عن نصف سنة ٨٥ « ١١٠ «

ASSIASA - Quotidien Egyptien

30, Rue Manakh, Le Caire

Téléph. 59872

حافظ للـــــذكرى

هل مات حافظ
أم رد الى حيـــاة جديدة

هل مات حافظ ابراهيم ؟ اما أنه انتقل جسمه من هذا العالم وأنه ووري التراب وانا أصبحنا ولا نستطيع أن نراه فتلك وقائع مادية لامحل لانكارها . وأما انا أصبحنا لانستطيع أن نستمتع بحلو مجلسه وحاضر بداهته ولاذع نكتته وخلاب سحره ورائع شعره وقوة بيانه فتلك كذلك وقائع مادية قطع اليقين كل شك فيها . لـكن هذا لايمنى أكثر من أن حافظا قدمات كشخص يعيش كما يعيش الناس يأكل كما يأكلون ويتكلم كما يتكلمون ويموت كما يموتون. أما حافظ الذى عرفه الملايين ممن لم يروه وانما عرفوه الشاعر القوى الذى يمثل وطنه ويمثل الشرق ويمثل الاسـلام ويصوغ فى ذلك كله قصائد خالدة على الزمن ، حافظ هـذا لم يمت ولا يمكن أن يموت . بل ان حافظا هذا قد رد بموت حافظ الذى مات الى حيـاة جديدة . حياة قوية فياضة بالجمال والرصانة وسمو الوجود. حياة ذات وحدة دائمة الانتاج كما كان شخصه هو فى حياته وحدة قوية دائمة الانتـاج . حيـاة لاتعرف التنافس ولا تعرف الضغينة ولا تعرف البغضـاء مما يجعله بعض الناس قوام حياتهم وما كان يوجه من كيـده لحافظ أثناء حياته حظ غير قليل . وأول مظاهر هذه الحياة الجـديدة التى ردت الى العالم من حافظ هو هـذا الشعور القوى بالالم لوفاته شعوراً بالغ من المتكلمين العربيـة جميعاً فى مشارق الارض ومغاربها أعمق اطواء الفؤاد وأبعـد أغوار النفس مما لا نزال نرى أثره بعد اربعين يوما انقضت على الوفاة واضحا جليا فى صحف مصر وفى صحف البلاد العربيـة جميعاً . هـذا الشعور بالالم لوفاة حافظ لايقف مصـدره عند الوفاة لرجل كان مثل الوفاء فى حياته فكثيرون ممن يزعم الالم لم يعرفوا حافظ وانما عرفوا شعره . ومن مظاهر هذه الحياة الجديدة كذلك ما يجيش بنفوس الناس جميعا من ألم ان تحركت يوم الوفاة فى نفوس القائمين بالامر فى مصر حفيظة على هذا الرجل لأنه كان شاعر الحرية وشاعر الخلق وشاعر الكرامة والانسانية مما لايؤمنون به ، وان بلغت هـذه الحفيظة من نفوسهم حداً أذهلهم عن الواجب لشاعر مصر وشاعر النيل فلم يحتفلوا بنقل جثمانه الى مقره الاخير احتفالا رسميا ولم يقم منهم من يمثل عرفان مصر لجميل حافظ وتقدير الوطن اياه ، وهذا أقل مايجب لرجل ينبض قلبه فى شعره بما نبض به قلب مصر عشرين سنة تباعا، وما كان أجدره بأن ينبض بما ينبض به قلب مصر من جـديد لو مد له فى الحياة . والامم ذات الحضارة هى التى تقـدر الرجال . ولئن كانت الامة المصرية قد قامت لحافظ بما يجب له وما هو من بعض حقه فان الحكومة القائمـة قد أنكرت نفسها كحكومة متحضرة حين قصرت فى هذا الحق ولم تؤده لصاحبه . ومظهر آخر من هذه الحياة الجديدة . حفلات التأبين تقام لحافظ فى أنحاء البلاد التى تتكلم العربية جميعا ويتناول فيهـا الشعراء والـكتاب شعر حافظ ونثره كوحـدة متجددة الحياة بما يجب لهذه الوحدة من اجلال واكرام . ومظهر رابع هذه الجماعة التى تكونت ، جماعة أصدقاء حافظ، وماتريد أن تقوم به من احياء أثر حافظ وتخليد ذكره . هذه الجماعة تعمل لضم حافظ من سلك التاريخ القومى لمصر وللأدب العربى فى مختلف عصوره فى المكان الواجب له . والتاريخ القومى لمصر وللأدب العربى وحـدة دائمـة الحياة فكل حلقـة فى سلسلتها دائمـة الحياة بحياتها . وقد نكون مغالين اذا قلنا ان هـذا الملحق الذى تصدره السياسة هو بعض مظاهر هذه الحياة الجديدة لحافظ وآثاره بما جمع من تقدير كبار الكتاب والشعراء وخول ذوى الرأى من أهل هذه الامة لهذه الآثار .

وليست هذه المظاهر الا بدء الحياة الجديدة الخالدة لأثر حافظ . هـذا الأثر الذى سيبقى لاريب على الزمان مابقى فى مصر انسان يذكر تاريخ مصر والادب العربى فيها . بل ان هذه الحياة الجديدة ستزداد على الايام قوة وازدهاراً وسيجرى شعر حافظ فى النفوس والافئدة مجرى الهـواء فى الجو والماء فى البحر . ذلك بأن شعر حافظ قطعة من تاريخ مصر ، ومن أشد صحف هذا التاريخ قوة وبهاء ؛ بل ان هذا الشعر لبعض عناوين المجد مما يتناقل الاجيال ؛ وهـذا المجـد هو الذى دعانا أكثر مما دعتنا الصداقة ومما دعانا الوفاء لننشر على الناس ملحق السياسة هذا عن المرحوم حافظ ابرهيم . تنشره للسبق الى عمل يتنافس فيه المتنافسون . وأى عمل أجـل من نشر صفحة من أبهى صفحات تاريخ مصر وأروعها . ونبـدؤه بابيات من شـعر حافظ لم تنشر من قبـل كما لم تنشر كثير غيرها مما نرجو أن يعيـده أصـدقاء حافظ الى ديوانه خدمة للأدب وللحق وللوطن . فـكل شعر قاله حافظ انما قاله فى سبيل الأدب والحق والوطن والخلق الكريم .

من شعر حافظ الذى لم ينشر
أيا صوفيا

قالها حين خيف على الاستانة أن يدخلها الاعداء

آيا صُوفيا حان التفرق فاذكرى ... عهود كرام فيك مثلوا وساموا
اذا عدت يوما للصليب وأهله ... وحان نواحيك المسيح ومريم
ودُقّت نواقيس وقام مزمّر ... من الروم في محرابه يترنم
فلا تُنكرى عهد المآذن انه ... على الله من عهد النواقيس أكرم
تباركت بيت القدس جذلان آمن ... ولا يأمن البيت العتيق المحرم
أيُرضيك ان تغشى سنابك خيلهم ... حماك وان يُمسى الحطيم وزمزم
وكيف يذل المسلمون وبينهم ... كتابك يتلى كل يوم ويكرم
نبيك محزون وبيتك مطرق ... حياء وانصار الحقيقة نوم
عصينا وخالفنا فعاقبت عادلا ... وحكمت فينا اليوم من ليس يرحم

وطنية حافظ

فقد الشرق شاعر العصر والنهضة ... م فى مصر . بل امام البيان
بل « نبياً » أحس بالكيد والدس ... م تواريه ملفمة الشلبان
فى رداء الوفاق . حينا وحينا ... فى برود الحياد والبهتان
فدعا قومه الى العمل الحازم ... م بالوحى تارة والنسان
ايه قومى لاتركنوا لوعود ... كخفتها الايام للعميان
قد بذلتم فى خدمة الغاصب المال ... م وجـدتم بانفس الفتيان (١)
وخذلتم يوم (القناة) ذوى القربى ... م وفاقا لطاعة الشيطان (٢)
أحسبتم فى الغرب وعداً شريفـا ... أم وثقتم فى ذمة القرصان
أم ظننتم حق الضعيف مصونا ... عندهم . لا . وحرمة القرآن
هـذه خلة السياسة والشرق ... م غريق فى النوم للاذقان
خدعونا والنار تلتهم الغرب ... م وصـدوا بعـد ابتسام الزمان
وتداروا خلف الستار يشيرون ... م بما فى غريزة الثعبان
وسليل « أم عامر » طبعه الشر ... م يجازى الاحسان بالـكفران
مصر أم من عقها من بنيها ... لعنتـه وباء بالخسران
نبـذته والخائن الغادر الوغد ... م جـدير بالطرد والحرمان
أجمعوا أمركم فقد مسنا الضر ... ولا صبر بعد هـذا الهوان
وفيقوا كم ضيع النوم يافوم ... م على الغـافلين حلو الامانى
واذكروا مجدكم (مصر) فى الزمن الغابر ... م والهنـد وهى فى الميـدان
من لنا مثل «حافظ» يشحذ الهمة ... فى الناشـئين والشبان
فى الفتى يسكب الدموع حزينا ... كفتـاة تبكى صريع الغوانى
لا يبـالى أحل فى مصر ويل ... أم تحلت كرهاً عن السودان
من لنا بعد حافظ يبعث الروح ... م ويحيى قلب المهين الجبان
من لنا بعد حافظ يرفع الصوت ... م ويرمى العدو بالعدوان
من لنا بعد حافظ يرسل الصيحة ... م تدوى كالرعد فى الوديان
يرهب الظالمون رجع صداها ... فى نفوس البواسل الشجعان
من لنا بعد حافظ يكشف الغمة ... م عنا بسحره الفتان
ويرينا فى معجز النظم والنثر ... م فنونا تقضى على الطغيان
عطر الله قبره وحباه ... من رضاه بالعفو والغفران

(حبيب)

(١) مساعدة المصريين بالمال والرجال الجيوش الانكليزية المعسكرة فى فلسطين وغيرها (٢) اشارة الى واقعة هجوم الجيش التركى على قناة السويس ووقوف الجيش المصرى فى وجهه

مصرع الهـــزار

بقلم العراق — لشاعرها الكبير جميل صدقي الزهاوي

جف روض المنى وشح الربيع ... وسقت مصرع الهزار الدموع
صوح الزهر في الربيع وأمضى ... صامتا يومه الحمام السجوع
ولقد راعني رزايا توالت ... وارزايا اذا توالت تروع
وهمى الدمع للامى دافقا من ... كل عين كأنها ينبوع
لم يبن لي الا فساد وكون ... ونتاج وفر وموت ذريع
ورأيت الايام تأكل من أعما ... رنا في الحياة وهي تجوع
رب جيل يردى فتوطأ بالاقـ ... ـدام منه جماجم وضلوع
وكأن الارض التي هي وارت ... كل هذي الاموات قبر وسيع
وكأن السماء قبة دير ... وكأن النجوم فيها شموع
وكأني وراء سود المنايا ... حمل يقيم الذئاب وديع

***

لاتعول على الاناهر تزكو ... فهي من بعد ماتضوع تضيع
ما لافنان الدوح يرجى سلام ... من رياح تخضر منها الجذوع
ليس تروى أرض بها ظمأ يلـ ... ـذع الا اذا سقاها النجيع
كلما هاهدت المقابر حولي ... أخذتني مهابة وخشوع
ليس للقادمين فيها بقاء ... ليس للذاهبين منها رجوع
وكأن الحياة بين الخلايا ... في جميع الاجساد برق لموع
انما ينبوع اذا جف في الشـ ... ـرق فقد روى اليماني اليفوع
من شقاء الانسان ان المنايا ... قاسيات ما ان اليها شفيع

***

يجتني الموت كل يوم صريعا ... وعلى الذئب لايعز القطيع
وتريد السماء منا شهيدا ... أو جريحا يسيل منه النجيع
نحن في حرب تدرك الفوز فيها ... ارجل تحتها يئن الصريع
انما الناس في الحياة غلاب ... خانع في اللقاء أو مخدوع
ان شر السلاح في عصرنا النا ... ر فما ان تقيك منها الدروع
ولعل الايام تأمر بالسـ ... ـلم ولكن هناك من لا يطيع
ما انتظاري لفجر ليل بهيم ... لم يكن مر منه الا هزيع
بقيت من دنيا الألى فرغوا ... منها قبور يطول فيها الهجوع
أمكان وليس فيه أمان ... وزمان وليس فيه ربيع
هل في جانب من الكون أرضا ... ليس فيها كراهة وولوع
ما أفاد الصقر المحلق في الـ ... ـجو مدلا أن الفضاء وسيع
ولقد هون الحمام على النا ... س وقد عضهم شباه الشيوع
أيها الثعلب قد ثار عجبي ... بعد ذاك النزاع هذا النزوع

***

يانهار الآداب لمت على المهـ ... ـد ولا في ضحاك ذاك المتوع
حملت أمواج الاثير الينا نبأ منه ... الناس في الشرق ريعوا
قد هوى للجبين شاعر مصر ... من علو فصار شكلي جزوع
بت ليلي لما نعوا حافظا لي ... وكأني من حية ملسوع
أنا مهد اليك حافظ ما قلـ ... ـت فهل أنت في ثراك سميع
واذا لم يرقك منه بياني ... فاستمع ماتقول مني الدموع

***

أيها الثاوي في حفير وطيء ... ان مجداً بنيته لرفيع
قد غرست القريض في أرض مصر ... فسمت منه في العراق فروع
وخدمت الآداب فيها بصدق ... مثلما يخدم الرياض الربيع
لا يجاريك في الخلود قريض ... كل ما فيك قلته سيضيع
لا أسامحك في الخطى عند سيري ... انني ظالم وأنت ضليع
ليس بدعاً ان ابتلتك القوافي ... فالذي نابها لعمري فجيع

***

قلدت أهل الغرب في الشعر ناس ... واذا الشعر أنفس مجدوع
ماعلموا ان الشعر في كل أرض ... هو من نفس أهلها منزوع
رب شعر له الملائك تعنو ... وهي لله سجد وركوع

***

ان هذا الذي ألم بمصر ... حدث فاجع وضرب وجيع!!!!!
لم يكن فقد شاعر النيل الا ... كارثا من جراه ريع الجميع!!!!!
ذاد عنها ذياد حر شجاع ... وهو فيه بنفسه مدفوع!!!!!
ما جنت أيديه ثمار المساعي ... يوم مدت منهم اليها اليوع
أيها الرافعون في أرض مصر ... أيكم في النضال عنها القريع
كان يبغي الاصلاح بالشعر منه ... وسواه يشري به ويبيع
كان يأبى اذ يخضعون وما ان ... يستوي ذو جراءة وهلوع
شاعر وقاد القريحة مطبو ... ع وما كل شاعر مطبوع
أدب رائع وخلق رضي ... وحجى راجح وذهن سريع
انما كلها العروبة ثكلى ... وبمصر وبالعراق صدوع

***

يادموعي كوني على النظم عوني ... انما حافظ هو الموضوع
أودعوه قبراً من الارض ضنكا ... ما به شرفة ولا توسيع
شيعوه الى التراب فأشجى ... كل ذي قلب ذلك التشييع
شيعوه الى مدينة موتى ... دونهم في اللقاء سد منيع
شيعته أصحابه وذووه ... وجموع وراءهن جموع
وكأن الضريح ربوة شعر ... وكأن الاشياع طير وقوع

***

كل ما قد نثرته فجميل ... كل ما قد نظمته فبديع
كلفوك الزلفى فلم تستطعها ... ليتهم كلفوك ماتستطيع
طلبوا أن تطيعهم طاعة عميا ... ء والحر شامس لا يطيع

***

طف بديوان حافظ واجن زهرا ... فهو لا ناقض (١) ولا ممنوع
طف نفسي على وضاءة نجم ... ما له من بعد الافول طلوع

***

أقفرت منك بعد ان كنت تشدو ... في ذراها منازل وربوع
قد أضاءوك غير ان الذي أظهر ... ت من عبقرية لا يضيع

***

حان أن يدعوني المنون اليه ... وسأعصي المنون لو استطيع
واعل الحمام ليس كما يز ... عم ناس مبالغون يروع
اخفضي يا نفس فما لك فيما ... أبرمته الاقدار الا الخضوع
ستحي الشمس المنيرة غيري ... وسيرفض شملي المجموع

بغداد في ٢٤ آب سنة ١٩٣٢ — جميل صدقي الزهاوي

(١) ناقض : متغير اللون

قصص اجتماعيـــة

ونماذج من أدب الغرب

لطائفة من اعلام الادب الفرنسي

بول بورجيه — اناتول فرانس — اندريه تيريه — فرانسوا كوبيه — جي دي موباسان — دي بانفيل — مارسل بريفو ... الخ

مترجمة بقلم

محمد عبد الله عنان المحامي

ومقرونة بتراجم تحليلية وافية لهؤلاء الكتاب

في ثلاثمائة صفحة طبعة ممتازة بمطبعة دار الكتب الاميريه

ويطلب من ادارة السياسة وجميع المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٠ قروش عدا البريد

حافظ ابراهيم

حياة نفسه في شعره

للدكتور هيكل بك

حافظ ابراهيم شاعر كبير . لكنه على عظمته كشاعر موجز تاريخ الحياة حتى لتستطيع القول بأنه نشأ نشأة عادية ثم التحق بالمدرسة الحربية ومنها سافر الى السودان ضابطا . وأقام بالسودان سنوات قليلة معدودة ثم عاد منه وأقام بمصر شاعراً يرتفع في سماء الشعر نجمه حتى يبلغ السماك ، ثم يلتحق من بعد ذلك بخدمة الحكومة في دار الكتب ويظل بها الى أن يحال الى المعاش في ٤ فبراير سنة ١٩٣٢ . هنالك يعود الى ميدان الشعر واسع الامل لولا تهدم بنيانه وانهيار صحته انهيارا استعجل أجله في ٢١ يوليو الماضي ، أي بعد أربعة أشهر ونصف الشهر من احالته الى المعاش .

على أن هذه الحياة الموجزة التاريخ كانت زاخرة بفيض قوي من حيوية هي التي أوحت لحافظ شعره كله . وشعره هو المظهر الاول والآخر لحيويته . فمن شاء أن يلتمس ترجمة نفسه في هذا الشعر يجب أن يلتمسها ، وانه لواجده تسري فيه من أوله الى آخره وحدة واضحة الحدود بينة المعالم منطقية الخطوات . اذ ذاك تتكشف هذه الحياة الساكنة الموجزة التاريخ في ظاهرها قلقة حافلة ، تزخر بالآمال الضخمة حينا لتتحطم على صخرات اليأس حينا آخر . تثب بحدوها الطموح الى غاية ثم ترتد كسيرة قعدت بها المقادير دون درك هذه الغاية . تحلق في أعلى مرتفعة فوق الناس جميعاً ثم يجذبها الناس الى الارض بكيدهم واحتيالهم فترتد من تحليقها برمة شديدة الضجر . تريد أن تسلك للمجد سبيل الكمال فاذا صورة المجد التي تريدها حافلة بالجاه والمال وعلو المكان واعجاب الناس جميعا لا تتحقق كاملة بل تظل ينقصها المال أو ينقصها الجاه مما يستمتع به الاغنياء الاغنياء وذوو الجاه الجهلة الادعياء فتسأم هذا المجد وتسأم الكمال الذي تريد أن تتخذه اليه سبيلا . ترتسم أمامها صورة الوطن كما يجب أن يكون الوطن حراً سعيداً عزيز الجناب فاذا في هذا الوطن نفوس ضعيفة تقعد به دون درك الحرية فيلعن حافظ أبناء الوطن وزعيمهم بشر الصفات . تهتز فخراً بالشرق وبالاسلام الذي نشأ في هذا الشرق ثم أظل العالم بحضارته وباللغة العربية التي البست هذه الحضارة ثوب جلالها ثم يدور حافظ في أنحاء هذا الشرق فاذا الغرب متحكم فيه ظالم له فيضطرب بين لعنة شرق لجموده ، ولعنة الغرب لظلمه ووحشيته لجموده . ويظل حافظ كذلك سنين متعاقبة حتى يغلب اليأس عنده الرجاء فلا يأبى أن يلقى عصا التطواف ليستريح موظفا في دار الكتب ظل فيها عشرين سنة مكتفيا من شعره بالقليل ينشره على الناس أو يلقيه في مناسبات خاصة ، حتى يحال الى المعاش .

على أن هذه الحياة الموجزة التاريخ كانت زاخرة بفيض قوي من حيوية هي التي أوحت لحافظ شعره كله . وشعره هو المظهر الاول والآخر لحيويته . فمن شاء أن يلتمس ترجمة نفسه في هذا الشعر يجب أن يلتمسها ، وانه لواجده تسري فيه من أوله الى آخره وحدة واضحة الحدود بينة المعالم منطقية الخطوات . اذ ذاك تتكشف هذه الحياة الساكنة الموجزة التاريخ في ظاهرها قلقة حافلة ، تزخر بالآمال الضخمة حينا لتتحطم على صخرات اليأس حينا آخر . تثب بحدوها الطموح الى غاية ثم ترتد كسيرة قعدت بها المقادير دون درك هذه الغاية . تحلق في أعلى مرتفعة فوق الناس جميعاً ثم يجذبها الناس الى الارض بكيدهم واحتيالهم فترتد من تحليقها برمة شديدة الضجر . تريد أن تسلك للمجد سبيل الكمال فاذا صورة المجد التي تريدها حافلة بالجاه والمال وعلو المكان واعجاب الناس جميعا لا تتحقق كاملة بل تظل ينقصها المال أو ينقصها الجاه مما يستمتع به الاغنياء الاغنياء وذوو الجاه الجهلة الادعياء فتسأم هذا المجد وتسأم الكمال الذي تريد أن تتخذه اليه سبيلا . ترتسم أمامها صورة الوطن كما يجب أن يكون الوطن حراً سعيداً عزيز الجناب فاذا في هذا الوطن نفوس ضعيفة تقعد به دون درك الحرية فيلعن حافظ أبناء الوطن وزعيمهم بشر الصفات . تهتز فخراً بالشرق وبالاسلام الذي نشأ في هذا الشرق ثم أظل العالم بحضارته وباللغة العربية التي البست هذه الحضارة ثوب جلالها ثم يدور حافظ في أنحاء هذا الشرق فاذا الغرب متحكم فيه ظالم له فيضطرب بين لعنة شرق لجموده ، ولعنة الغرب لظلمه ووحشيته لجموده . ويظل حافظ كذلك سنين متعاقبة حتى يغلب اليأس عنده الرجاء فلا يأبى أن يلقى عصا التطواف ليستريح موظفا في دار الكتب ظل فيها عشرين سنة مكتفيا من شعره بالقليل ينشره على الناس أو يلقيه في مناسبات خاصة ، حتى يحال الى المعاش .

الامل وبعاوده الطموح فيحمل قيثارة الشاعر من جديد يريد أن ينشد عليها أشجان وطنه . لكن الراحة الكبرى كانت تنتظره ومقره الأخير كان قد هيأه له القدر ينام فيه النوم الهادىء الطويل .

هذه الصورة القوية الحافلة من حياة نفس حافظ هي ما نريد في هذا الفصل أن نستعين بشعره لابرازها . ويدعونا الى الحرص على ذلك أن حياة حافظ على ما هي ظاهرة في شعره تمثل عصراً كاملا من عصور حياة مصر العامة . اذ ذاك يبدو لنا هذا الرجل وكأنه ثورة قلق دائمة منذ نشأ الى أن قضى ، وكأنه عاصفة هوجاء القت بها المقادير في هذا الوجود لتحطم وتحى ، ولتقبر وتبعث ، ولتكون دائما أملا ينهار ويأسا ينبعث في ارجائه ضياء الامل ، ولتظل كذلك دائمة القلق لا تعرف الاستقرار حتى تأوي الى طمأنينة الموت ، وتستريح في ظل النعيم .

ولعلنا قبل أن نسائل شعر حافظ عن حياته وحيويته يجب أن نسأل : كيف أعد حافظ نفسه للشعر . انه لم يدرس ، فيما يعرف الناس من حياته ، دراسة متصلة . وهو قد التحق بالمدرسة الحربية ومازال في فتوة الصبا ومستهل الشباب . ومن بعد المدرسة الحربية ذهب الى السودان فاذا به يبعث من هنالك الى أصدقائه بمصر شعرا قويا رصينا . ولم تكن المدرسة الحربية يومئذ ولا كانت معاهد الدرس الاخرى مما يمهد للشعر سبيله . ولئن كانت الطبيعة قد حبت حافظا بالموهبة الروحانية السامية ، موهبة الشعر ، فكيف عهدت لهذه الموهبة أسباب الظهور . لقد نشأ حافظ فقيراً وظل يشكو الفقر طوال السنين ، بل ظل يشكو الفقر كل حياته . أفلا يدل ذلك على أن هذه الموهبة فيه كانت منذ نشأته قوية غاية القوة متحكمة غاية التحكم حتى لقد صرفته عن كل شيء اليها وجعلته يهمل كل شيء في سبيلها وجعلت من هذا الفقر الذي كان يشكو وسيلة لاذكاء نورها .

والذين يعرفون ما كان يحفظ حافظ من الشعر لا يرتابون لحظة في أنه قد بدأ يحفظه وهو مازال في بدء صباه وفي صدر شبابه ، وانه كان من يومئذ شديد الولع بالجيد منه قوي الذاكرة في استظهاره . واحسبه وجد مشجعا على هذ يومئذ في تلك النهضة التي كانت قائمة لاحياء الشعر القديم والنسج على منواله ، وفيما بلغ محمود باشا سامي البارودي أكبر أبطال هذه النهضة من جلال المكان وجليل القدر والخطر . واحسب كذلك ان التحاقه بالمدرسة الحربية جعله أشد للبارودي ولما قاله من الشعر في الحماسة وفي الحرب حبا . ولا الحماسة في الشعر العربي القديم مكانة تستهوي النفس الميالة للشعر به النفس المطبوعة عليه . فاذا كان لهذه النفس المطبوعة على الشعر من الطموح ما كان لحافظ ابراهيم ، وكانت نهضة الشعر من دواوين فحول الشعراء المتقدمين ، سهل علينا أن ندرك كيف اعد حافظ نفسه للشعر ، ولهذا الشعر القوي الرصين المتين الديباجة الجزل اللفظ جزالة جعلت صديقه خليل مطران يقول عنه في تقديم الجزء الاول من ديوان حافظ : « له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى . وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على الجماد معنى . فاذا فاته الابتكار حيناً في التصوير لم يفته الابتكار حينا في التصوير »

ويتكفل حافظ في مقدمة هذا الجزء الاول كذلك من ديوانه باثبات هذا الذي ذهبنا اليه في أمره من أنه بدأ يحفظ الشعر القديم منذ نشأته اذ يذكر انه قرأ ابن الرومي ، وأدمن النظر في بشار بن برد ، وأكثر من مطالعة شعر مسلم بن الوليد ، ومرح الطرف في شعر ابي نواس ، ورجع البصر في شعر ابي تمام ، وأنعم النظر في شعر البحتري ، وأكثر التأمل في شعر ابي الطيب ، ودرس الشريف الرضي وابن هانىء ، الاندلسي وابن المعتز والعباس بن الاحنف ، وأبا العلاء المعري ، وأنه حفظ من هؤلاء جميعاً مختاراً كثيراً ، وأنه عرضهم جميعاً ليزان نقده وحكمه على شعر كل واحد منهم بما عن له من وجوه الرأي فيه .

بهذه البضاعة من الادب والشعر ، أو بالكثير منها ، وبموهبة شعرية فياضة ، تابع حافظ ابراهيم دراسته بالمدرسة الحربية ومن حوله زملاء اكثرهم لا يجيد القراءة والكتابة . أفليس من حقه أن يطمح الى مستقبل باهر وان يطمع في كبرى المناصب ؟ ألم يكن محمود باشا سامي البارودي وزيراً للحربية ؟ وبهذه البضاعة سافر حافظ بعد المدرسة الحربية الى السودان فاذا من به من الضباط ومن الضباط العظام والكثيرون منهم لا يقرأون ولا يكتبون . أفليس من حقه أن ينظر الى هؤلاء نظرة ازدراء واحتقار وأن يطمع في سبقهم والتقدم عليهم ؟ وهل تراه يقنع بمثل عيشهم أم هو كشاعر جدير بأن يجاري أبا نواس وغيره من الشعراء في المجانة واللهو . لكنه فقير . ولكن الانكليز الذين احتلوا مصر وامتد نفوذهم الى السودان لا يريدون أن يرتقي الضباط المصريون الى المراتب العليا . فيجب أن يقنع حافظ اذن بحظه أو يسخط على هذا الحظ ما شاء . ولقد كان حافظا ساخطا يومئذ كما كان في أكثر أدوار حياته بعد ذلك . فقد أرسل من شعره الى أصدقاء له بالقاهرة يحدثهم عن السودان حديث الساخط ولكن في غير ثورة ، البرم من غير أن يشتد به القلق والضجر . كتب من هناك الى صديقه محمد بك بيرم قصيدة سلسة رصينة حسب تاريخها يقع ما بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٨٩ يقول فيها :

نزحت عن الديار أروم رزقي
وأضرب في المهامه والنجوم
وما غادرت في السودان فقراً
ولم أصبغ بتربته أديمي
ها أنا بين أنياب المنايا
وتحت براثن الخطب الجسيم
ولولا سورة للمجد عندي

تتكون في نفس حافظ لتدفعه اما الى الذروة واما الى غيابات السجون . ولعل ثورة كانت تتكون في نفسه بالفعل . لكنها كانت ما تزال ضعيفة لا تهز صاحبها . فهو ما يكاد يصف نفسه بين أنياب المنايا حتى يقول :

أيا ابن الاكرمين أبا وجداً
ويا ابن عضادة الدين القويم
أتيتك والخطوب تزف رحلي
ولي حال أرق من النسيم
فلا تخلق قدمت أديم وجهي
ولا تقطع مواصلة الحميم

هذا وصدر القصيدة تشوق الى مصر وذكر للشراب والنديم وما اليهما من مثلهما مما لا تجيش به نفس ثائرة يبلغ السخط منها على الحياة وعلى حظها منها مبلغا تريد معه تحطيم قيودها والتحكم فيها . وانما هو ضجر الرجل الذي كان يطمع من رحلته الى بلاد .

كأن أديمها أحشاء صب
قد التهبت من الوجد الاليم
كأن سرابها اذ لاح فيها
خداع لاح في وجه الغيم
تضل بليلها لهب فتحكي
بوادي التيه أقوام الكليم
وتمشي السافيات بها حيارى
اذا نقل الهجير عن الجحيم

في أن يصل الى مكان من المجد أو على الاقل من الطمأنينة الى الحياة يستريح له فاذا مطمعه لا يتحقق واذا هو لا تساعفه المنى ولا يجد الى آماله بابا مفتوحا فيمعن في اللهو واللذائذ مما وصف في أول قصيدته .

على ان قلقه وضجره من مقامه بالسودان ما فتىء يزداد وما فتئت نفسه يهفو بها الحنين الى مصر حتى مرجعه الى اليأس من بلوغ أمله بتلك الربوع النائية أكثر مما يرجعه الى تحرق أحشائه على الوطن ومن فيه . فلقد كان حافظ قليل الاهل بمصر غاية القلة . واذا كان له بها اخوان فهو قد استبدل بهم في السودان اخوانا . لذلك فكر في الاستعانة بمن يرجو فيه حسن الوساطة في عودته الى القاهرة . وقد وجد في المغفور له الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده من توسم فيه هذا الرجاء . وأطمعه في حسن وساطة الشيخ أن كان الامام زعيم دولة الادب ونصير الادباء جميعا . ويسر له ذلك أنه كان في منصب يجعل له من القدرة على حماية من يريد حمايته ما لم يكن لغيره به قبل . وقد قبل الشيخ الوساطة ووعد أن يسعى لنقل حافظ من السودان الى مصر . لكن ظروفا قد تحول دون انجاز الوعد ولم يقيم لها صاحب الحاجة وزنا . لذلك ماليث الزمن أن طال بالوعد حتى كتب حافظ للشيخ يستنجزه وعده . ولكي يجمل لنفسه عند الشيخ شفيعا جعل كتابه قطعة من الادب العربي القديم آية في السلاسة والحلاوة الرنة ومثلا من أمثال البلاغة في خير عصور البلاغة في اللغة العربية أيام ازدهار البديع فيها . فهو يبدأ كتابه بهذه العبارة : « كتابي الى سيدي وأنا

وتسلقت الحبور ، وقطعت مابيني وبين الغرائب .

وبشرت أهلي بالذي قد سمعته
فما سمحتني الا ليال قلائل
وقلت لهم للشيخ فينا مشيئة
فليس لنا من دهرنا ما نحاول»

لم تتح الظروف للشيخ أن ينجز وعده فظل حافظ بالسودان الى أن كانت ثورة الضباط. وما كان أشبهها بثورة الضباط أيام عرابي ثورة أدت الى تداخل الانكليز في شؤون مصر واحتلالهم اياه . ولعلها لم تكن بريئة من دافع خارجي استغل سذاجة هؤلاء الضباط ليمهد للاحداث السياسية التي وقعت بالسودان من بعد ذلك . وأيا كان الشأن فان الحكومة المركزية في السودان رأت أن تحاكم هؤلاء الضباط وحافظ ابرهيم أحدهم . لكن شفاعة الخديو يومئذ جعلت تلك الحكومة تكتفي بابعادهم لمصر ابعاداً يعيد الى الذاكرة ماوقع في مصر في سنة ١٩٢٤ مما انتهى باجلاء الجيش المصري عن السودان . وكذلك عاد حافظ الى مصر وامله في الرقي متهدم منهار ورجاؤه في الحياة متداع ضئيل .

على م يدل شعره بعد عودته ؟ بأية حال نفسية دخل عاصمة بلاده وبأي روح لقي فيها أصحابه الاقدمين ؟ أفكان مرحا طروبا ان تحقق له أمل العودة الى الوطن ؟ أم كان ثائراً شديد الثورة ان أبعد عن السودان وان دكت في نفسه أطواد أمله ؟ لا شيء في شعره يحدثنا عن هذا أو يدل عليه . بل نحن أمام فترة هو فيها واجم مستجم ، ولعله فيها خائف مضطرب . وقد يدور بالخاطر أن يأخذ الانسان عليه وجومه وخونه . فهذا الرجل الذي تنقل في ربوع السودان وجاس خلاله وعرف حياة القبائل والصحراء ، والذي أجلي عن هذه الناحية من نواحي الوطن لانه ثائر خارج على النظام ، والذي نهض بالشعر نفسه انتفى عن دن خمر وعن سباق وعن طرب ؛ هذا الرجل لايهيج بالشعر نفسه مأصابه من ظلم ومن اضطهاد ؟ ولا تحرك ربة شعره هذه اللانهايات المترامية من صحاري السودان يشقها النيل الازرق من جانب والنيل الابيض من الجانب الاخر لتلتقي فيما وراء ذلك صحاري مترامية الى اللانهاية يضل فيها بصر رزقاء اليمامة وينتشر فيها السراب والآل كأنه الواحات الخضر حينا ورؤوس الجان المجدية حينا آخر ؟ كيف وجم حافظ اذن ؟ كيف نكص على عقبيه لايقول في ذلك شيئا ؟ وكيف نرانا نقلب صحف ديوانه فلا نرى عن السودان وما فيه وعن القاهرة واستقبالها اياه بيتا واحداً يكشف لنا عن حالته النفسية في ذلك الظرف ؟ وعندنا ان لهذا الوجوم أسباب تقصره . اولها انه كان في ثورة الضباط معرضا مثلهم لمحاكمة قد تنتهي الى الحكم بالاعدام ؛ وان ما أصاب عرابي وسامي البارودي وصحابهم كان ماثلا في الاذهان . فاذا كانت شفاعة الامير قد جعلت السلطات العسكرية تكتفي بابعاده عن السودان فما أشد خونه ان هو ثارت بالشر نفسه يصف مادماه وزملاءه الى ثورتهم أن يقبض عليه وأن يحاكم ، ومن يدري وقد كان [illegible] أن يحاكم كان يتعرض لصدوره

ضده . وسبب ثان ان حافظا كان رقيق الحال فقيرا وأن سوق الادب كانت أشد مما هي اليوم كسادا وان الكتاب والشعراء كانوا مايزالون حميلة في عيشهم على غيرهم يمدحونه تارة ويضحكونه أخرى ليعيشوا في بره وفي رضاه . ومن كانت هذه حاله لم تعرف الثورة سبيلها الى نفسه ثورة عنيفة قوية تهز القلوب وتزلزل العواطف . فالنفس الثائرة ترتفع أبداً فوق مستوى الناس وتأبى أن يكون لاحد على صاحبها في الحياة يد وتطمح الى أن تجذب الجمهور وتدفعه الى الناحية التي تريد . وسبب ثالث ان الشعر العربي كان يومئذ يقلد الاقدمين ويحاول أن ينسج على منوالهم . وشعر الثورة لم يكن متداولا في الاعصر القديمة على ما وصل الينا في دواوين تلك العصور . وحافظ كان ما يزال في شدة اعجابه بشعر الاقدمين قليل الابداع في المعاني المبتكرة على جمال ابداعه في المعاني التي جرى الشعر القديم بها . وسبب رابع أن حافظا كان ما يزال يطمع في العود الى خدمة الحكومة لتكون له مرتزقا سهلا يستطيع في ظلاله أن يرضي شهوة نفسه من الشعر يقول ما يشاء في الغزل وفي الخمر وفي المديح وغيرها من ألوان الشعر التي لا تهيج عليه حفيظة أولي الامر وأصحاب الحل والعقد . هذه الاسباب وما قد يضاف اليها من مثلها هي التي تفسر لنا خلو أجزاء ديوان حافظ من شعر يصف نوازع نفسه في هذه الفترة من حياته . ويؤيد صحة هذه الاسباب أنه ما لبث زمناً يتردد فيه على دور الصحف وينشر فيه بعض فنون الشعر التقليدي في مجلات ذلك العصر حتى عاد الى الحكومة موظفا ضابطا من جديد وحتى خيل اليه أن قد فتح أمامه باب الرزق يستريح اليه ويتفيأ ناعم ظلاله

وربما صح أن يكون هذا موضعا لنقد حافظ لان ظروفه وظروف مصر لم تكونا كما كانتا يومئذ . فالنفس الشاعرة متوثبة لاتطيق بطبعها الضيم ولاتصبر عليه . والشاعر الذي يستعذب الهوان ويسكن اليه متقاعس الشاعرية فاسدها . لكن حافظا وان سكت فلم يصف في هذا الظرف ذلك الذي كان يحيط به الا أنه لم يرضه ولم يطمئن اليه . فهو ما لبث أن عاد الى خدمة الحكومة من جديد وحتى ثارت به شاعريته الحبيسة في قفص العيش المادي وحتى رأيناه بين حب الحرية الى غاية حدود الحرية وبين البرم بهذا الضغط الواقع عليه وعلى أمثاله يغادر وظيفته مرة أخرى ويعود طليقا يرخي لشاعريته العنان كي تندفع بحكم الظروف والطريق الطبيعي الذي أعدت الاقدار له نفسه القلقة الثائرة ، ولينضج بعد ذلك فيكون كلمة أمته وكلمة الاسلام وكلمة الشرق ، كلمة عالية قوية ضخمة تهز النفوس والقلوب وتحرك الارواح والافئدة وتكاد تضيء هذه الامبراطورية الشرقية العظيمة بنور جديد ، لولا ان دهمت الاقدار هذه الامبراطورية بأرزاء وأهوال جعلتها كسيرة مصروعة وجعلت هذه الصيحات التي يرسلها حافظ قوية عاتية تزلزل الاطواد وتهز الجبال تقف منها عند تحريكها حركة عنيفة من غير أن تتضح في هذه الحركة كل ثمارها ، وكأنما اكتفت بأن تذرها تتمخض عن هذه الثمار لتنعم بها يوم تنضج فيها أسباب النعمة بثمار الحرية .

أي الاطواد اجتزت نفس حافظ فيما بين عوده من السودان والتحاقه مرة أخرى بخدمة الحكومة ثم تركه اياها من جديد واعتلائه منبر شاعر الحرية وشاعر العربية في الشرق كله ؟ ظلت ربة شعره تغذيه وتمده لطور النضج الاخير وظلت تعرض له قوة لغته العربية واقتدارها على أن تتسع لكل مايجيش بنفسه من المعاني في صورة من البلاغة تذبل أمامها أروع صور البلاغة القديمة . لكن ربة شعره في اعدادها نفسه لطور نضجه كانت تنافس الشعر القديم في أبوابه تحاول أن تسمو فوقه وتحلق في مراقي أسمى ذرى مما وصل الشعر القديم اليه . ألم تكن الخمريات وكان الغزل وكان المديح وكان الرثاء خير ما يعالج القدماء من فنون الشعر . فليكن في خمرياته أقوى من أبي نواس وفي مديحه أبدع من أبي فراس ومن المتنبي ، وفي غزله أرق من جميل ومن كثير ، وفي رثائه أشد توجعاً من الخنساء وأروع حكمة من أبي العلاء . أتحمه يتغنى بالخمر واقرن اليه أبا نواس وسائل نفسك ألم يكن شاعرنا يريد أن يبز شاعر الخمريات في العصور العربية جميعا ، وأن يبزه في هذا الباب الذي بز أبو نواس فيه كل من سواه . نعم . اسمعه يقول :

خمرة في بابل قد صهرجت
هكذا أخبر حاخام اليهود
اودعوها جوف دن مظلم
ولديه بشروها بالخلود
سألوا الكهان عن شاربها
وعن الساقي وفي أي العهود
فأجابوهم فتى ذو مرة
من بني مصرله فضل وجود
مغرم بالعود والناي معاً
مولع بالشرب والناس هجود
همه قصد دنان وندى
وأبوه همه جمع النقود

ولست بحاجة الى ذكر قصيدته التي بلغت بين الخمريات في الشعر كله من الابداع ما جعلها محفوظة عند كل من له بالشعر العربي ولع والتي يقول فيها :

أطلق الشمس من غياهب هذا الـ
ـدن واملأ من ذلك النور كأسي
وآذن الصبح أن يلوح لعيني
من سناها فذاك وقت التحسي
وادع ندمان صفوتي وائتناسي
وتعجل واسبل ستور الدمقس
واسقنا ياغلام حتى نرانا
لا نطيق الكلام الا بهمس
خمرة قيل انهم عصروها
من خدود الملاح في يوم عرس
يا نديمي بالله قل لي لماذا
هذه الخندريس تدعى برجس
هي نفس زكية وأبوها
غرسه في الجنان أكرم غرس

ولحافظ في هذا الطور من أطوار حياة نفسه قصائد في المديح وفي الرثاء وفي الغزل غاية في القوة . لكنك تشعر انه في هذا الطور من شعره يعارض الشعراء الاقدمين يقلدهم في معانيهم وفي تصويرهم وفي ميولهم ، وتشعر كذلك شعورا قويا يميل يبدأ معه منذ ذاته [illegible] واياه حتى آخر أيامه .

ذلك هو ملك لغة العرب ملكا يطوع له أن يظهرها في هذا العصر في كمال قوتها وقدرتها على أن تضاهي أحدث اللغات صقلا وحياة في جمال صقلها وقوة حياتها ، وتمكنه من أن يهدم المزاعم التي كانت توجه لها من أنها لغة قديمة عاجزة عن أن تجاري الحياة الحديثة . وانك لتشعر حين تقرأ قصائد المديح في ديوانه انه كان يطمع لنفسه ويطمع لآماله في اللغة وفي الادب أن يجد عند السراة والامراء والسلاطين من تأييد والادب وجماله مايحقق رجاءه وما يعيد ذلك العهد القديم حين كان الشعراء يهزون بشعرهم أريحية هؤلاء الذين دفعتهم المقادير الى مكانة السلطان والحكم في الحياة العامة هز ايوجههم منه الى الغاية التي يرجوه ولعله حاول أن يصل الى رجاء الخديوي عباس حلمي من يومئذ لهذا الغرض . فاما نرى له مدائح في عبد الحليم باشا عاصم (سراوان) الخديوي حين اسناد امارة الحج اليه سنة ١٣١٣ هجرية (أي منذ ثمان وثلاثين سنة) ونرى له مدائح غير قليلة في الخديوي عباس نظمه بعد ذلك في سنة ١٩٠١ . على أن خلقه لم ييسره سبيل الاتصال ببلاط أمير مصر اتصال زلفى وتقريب ، فقد كان يشعر في أطواء نفسه أن له من امارة الشعر مايعدل امارة عباس على عرش مصر . روى صديقنا الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري أن حافظا ذهب الى قصر القبة يوما فأمر عباس فتناول الشاعر الطعام في القصر مع أحد رجاله فلما سأله الخديوي بعد ذلك ان كان قد سر بطعامه كان جوابه : «معاوم يأفندينا . فأني أكلت في بيتنا تمام» . وقد تكون في هذه الاجابة نكتة لطيفة لكنها ليست مما تمثله حياة القصور وأربابها . ولعل هذا الخلق الشرس الذي كان لحافظ والذي لم يكن مما يقرب من أرباب القصور ، ومن الجالس على عرش مصر يومئذ ؛ فتح الباب امام رجال البلاط لابعاد هذا الرجل عن الأمير ، ففي أخلاق رجال البلاط غيرة مخيفة تجعل قراءم حيالهم الوقيعة الرضيعة والدسيسة الدنيئة . وقد لقي حافظ من ذلك في بلاط السلطان عبد الحميد مالقي في بلاط عباس . روى لي رحمه الله وأسكنه فسيح جنته قبل أشهر معدودات من وفاته أنه علم بأن السلطان أو رجال بلاطه تهموا به وبشعره وفكروا في اتخاذه شاعر خليفة المسلمين في بلاد العرب ، وان المرحوم ابرهيم بك المويلحي كان يرشح بالأستانة . ولعل أبا الهدى قاتحه في أمر حافظ وفيما يراديه . وخشي رجال بلاط عباس أن تتحقق لحافظ هذه الامنية حين خاطبهم المويلحي الكبير فيها فيزداد تجمعه في سماء الشعر رفعة وتزداد به مكانة خليفة المسلمين في مصر قوة وأيدا . لذلك اتفقوا مع المويلحي كي يفسدوا على حافظ الأمر ويحولوا بينه وبين بلاط السلطان .

وكان أبو الهدى يستظرف فتى اسمه شكيب ، فبعث المويلحي من الاستانة الى حافظ يعمر أن يقول شعرا في هوى متصوف لفتى بهذا الاسم . وقال حافظ قصيدته التي جاء فيها :

أخرق الدف لو رأيت شكيبا
وفض الاذكار حتى يشيبا
لاتعبن ياهكيب دبى
انما الشيخ من يذب ديبا

...لوا سبحتى بفهمل كان تسبيـ...
حى فيها الا شكيبا شكيبا
الخ الخ .

وبدأ بالقصيدة الى المويلحى الذى عرضها ...الشيخ أبى الهدى ذاكرآله أن حافظا يعرض ...فيها . وبذلك تغير رأى ولى الله فيما يعتقد ...لطان، وفسد الامر على حافظ عند السلطان .

وأحسب لو أن حافظا اتصل ببلاط السلطان ...ان شاعره لما طال به الامر ولبدرت منه ...زة من بوادر حريته المتسلطة على كل نفسه ...ضطر أن يعود أدراجه ليسلك الطريق التى ...ك وليصل الى نضجه شاعر الحرية وشاعر ...ربية وشاعر الشرق كما كان حتى وفاته . وانك ...ى هذا الاتجاه فى شعره من يومئذ . فبينا ...ت تراه فى تأثره بتاريخ الشعر العربى القديم ...شعراء العرب فى العصور الماضية ومعرضهم ...الانحاط بالسراة والامراء والملوك اذا به ...نفس الوقت يقول شعراً ينعى به على قومه ...ضوعهم وينعى به على الزمن مارمى به وطنه ...ما رمى به الاسلام والشرق . فبينا تراه يذكر ...باسا وما وصلت مصر الى علو الشأو ورفعة ...شأن فى عهده مما يقتضيه مقام المديح سواء كان ...يذكره من ذلك صحيحا أو زائفا تراه فى نفس ...هذه الفترة يقول :

...تى أرى النيل لاتحلو موارده
لغير مرتهب لله مرتقب
...قد غدت مصر فى حال اذا ذكرت
جادت جفونى لها بالدر والرطب
...كأنى عند ذكرى ما لم بربا
قوم تردد بين الموت والهرب
...اذا نطقت فقاع السجن متكئى
وان سكت فان النفس لم تطب
...آل عثمان ماهذا الجفاء لنا
ونحن فى الله اخوان وفى الكتب
...تركتمونا لاقوام تخالفنا
فى الدين والفضل والاخلاق والادب

وتراه كذلك فى هذه الفترة من حياته يقول:

ساسكت حتى لو رأى القوم حالتى
رأوا رجلا هانت عليه مصائبه
...رجائى فى قومى ضعيف كأنه
جنان وزير سودته مناصبه
...ودائى كداء الدين عز دواؤه
وحظى كحظ الشرق نحس كواكبه
...الى وجهدان قومى فارتضى
حياتى ولا أشقى بما أنا طالبه
...يقاومون تحت الضيم والارض رحبة
لمن بات يأبى جانب الذل جانبه

ثم هو فى هذه الفترة يبدأ عنده الاحساس ...بأن فنون الشعر العربى التى سلك القدماء ...لم تبق كافية للتعبير عن هذه المعانى الجديدة ...القوية التى ينبثق ضياؤها فى ارجاء نفسه والتى ...يزداد شعورا بها كلما شعر بعدم مقدرة الامراء ...والملوك على النهضة التى يرجوها لقومه وللاسلام ...وللشرق نهضة حرة قوية فيقول موجها خطابه ...شعر :

...معت بين الدهى وبين الخيال
ياحكيم النفوس يا ابن المعالى
...عت فى الشرق بين قوم مجرد
لم يفيقوا وأمة وكهال

وقد أذالوك بين آنس وكأس
وغرام بطيبة أو غزال
ونسيب ومدحة وهجاء
ورثاء وفتنة وضلال
وحماس أراه فى غير شىء
وصغار يجر ذيل اختيال
. . . . . .
أن يا شعر أنت قيدت قيودا
قيد تثنيها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا
ودعونا نشم ريح الشمال

عاونت الاحداث التى ذكرنا والتى نأت بحافظ عن السودان وعن خدمة الحكومة وعن بلاط عباس وعن مقام شاعر الخليفة على نمو هذا الروح فى نفس حافظ. كما عاون على نموه استعداد حافظ وفطرته . فهو كما رأيت كان شديد البرم بكل قيود الحرية شديد التأفف من هذه التقاليد التى يقتضى الامراء الناس، ومن هذا التكلف الذى يريد السراة أن يطبعوا به حياتهم . وأين يجد الانسان الحرية ؟ يجدها عند الشعب الحريص على الحرية ماتمتع بها، الظمىء لها ماحرم منها . فلتخالط نفس حافظ بنفس الشعب وليمتزج روحه بروحه، وليعلن واياه سخطه على هذه الاغلال التى وضعت فى عنقه ، وليكن هذا الاعلان قويا تنفرز منه الافلاك وتهتز من قوته الارض والسماء . لكن هذا الشعب الذى خرج من نكبة الثورة العرابية بنكبة الاحتلال الانكليزى ، هذا الشعب الغارق بصنع حكامه وامرائه المستبدين فى بحار الجهالة والمسكنة ، هذا الشعب الذى استغله أدعياء الحرية ثم تركوه ينعى حظه ، هذا الشعب لم يكن سريعا الى رد الظلم ولا كان سريعا الى الثورة على البغى والعدوان . ولم يكن شعب مصر وحده الشعب الوكل ، بل كانت شعوب الشرق وكلة مثله ؛ خاضعة لحكم الغرب خضوعه ، مستسلمة الى اقدارها حتى لكأنها مطمئنة اليها . فهل ترى تستريح نفس حافظ الى أية ناحية من هذه النواحى المظلمة جميعا ؟ أم ترى نفسه القلقة منذ نشأته يزداد قلقها فتقف بين استسلام الجامدين ومحاربة المستبدين والتماس نور الامل خلال هذه الدياجى الحالكة سواد اليأس القاتم ؟ يكفيك أن تراجع شعره لترى نفس الجندى القديم تثور فتقتحم هذه الميادين جميعا، ولترى شعر هذا الجندى الضخم العريض الاكتاف المنفتح الصدر الهازئة قوته بقوى ذوى الملك والسلطان من أهل هذه الحياة يقتحم هذه الميادين قويا عاصفا محطما ماحوله مخترقا صفوف الظلام صائحا بالنائمة والغافل ، صائحا فى وجه المستبد والظالم ؛ مهيبا بالقدر كى يعينه على ايقاظ هذه الامة الهامدة حوله، شاكيا متوجعا كلما أحس بأسنة أشعاره تتقصف حين تصطدم بظلمات الجهل والعماية ، والهوى والظلم ؛ والشره للمال، وبكل النقائص اجتمعت فى الظالمين ، ومن يلوذون بالظالمين ، وأناخت بكلكلها على هذا الشعب المصرى الذى ملك حبه شغاف قلب حافظ. وما أدرى فلعلى لاأظلم أحدا اذا قلت ان حافظا كان أصدق الشعراء حباً لوطنه وبراً به رغم ما أساء اليه هذا الوطن وما تخلى عنه فى

هذه الفترة التى نضج فيها شعره ونضجت فيها نفسه لاترى فيها صورة هذا الوطن مرتسمة فى سويداء قلبه ممتثلة بها كل نفسه ، حتى مايفوته التوجع لهذا الوطن واستنهاض همة بنيه والقاء شواظ الغيظ على ظالميه ، سواء أكان حديثه عن اللغة العربية أو عن الدستور العثمانى أو عن حادث المرحوم الشيخ على يوسف فى مسألة الزوجية أو عن حرب الروس واليابان أو عن أى ماشاء من أمور لا صلة لها بالوطن وما يرزح تحته من اعباء . فهو اذ يريد أن يتحدث عن اليابان وانتصارها على الروس واذ يصف غادة اليابان مشمرة عن ساعدها ذاهبة الى الميادين تواسى الجرحى وتقفى حقهم وتراعى فى الوغى من نكب ، لايفوته أن يجعل بدء الحديث عن وطنه فيقول :

لاتلم كفى اذا السيف نبا
صح منى العزم والدهر أبى
رب ساع مبصر فى سعيه
أخطأ التوفيق فيما طلبه
أنا لولا ان لى من أمتى
خاذلا مابت أشكو النوبا
أمة قدفت فى ساعدها
بغضها الاهل وحب الغربا
تعشق الالقاب فى غير العلا
وتفدى بالنفوس الرتبا
وهى والاحداث تستهدفها
تعشق اللهو وتهوى الطربا
لاتبالى لعب القوم بها
أم بها صرف الليالى لعبا
ليتها تسمع منى قصة
ذات شجو وحديثا عجبا

ثم ينطلق يتحدث عن الغادة اليابانية وعن انتصار اليابان على روسيا وعن بزوغ ضياء الامل فى سماء الشرق من جديد

ويتحدث عن قضية الزوجية بين الشيخ على يوسف والسيد السادات فيبدأ قصيدته عاتبا على مصر مذكرا اياها بالاتفاق الذى تم بين انكلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ على اطلاق يد انكلترا فيها ثم يقول :

أيعجبنى منك يوم الوفا
ق سكوت الجماد ولعب الصبى
وكم غضب الناس من قبلنا
لسلب الحقوق ولم نغضب
يقولون فى النشء خير لنا
وللنشء شر من الاجنبى
أفى الاربكية مثوى البنـ
ـين وبين المساجد مثوى الاب
أمور تمر وعيش يمـ
ـر ونحن من اللهو فى لعب
وشعب يمر من الصالحا
ت فرار السليم من الاجرب
وهذا يلوذ بقصر الامير
ويدعو الى ظله الارحب
وهذا يلوذ بقصر السفيـ
ـر ويطنب فى ورده الاعذب
وهذا يصيح مع الصائحين
على غير قصد ولا مأرب
أتنا الخمول ويالينتا

ويتكلم بعد ذلك عن قضية شيخ المؤيد ونفاق الناس له برغم صدور الحكم ضده ثم يقول

فيا أمة ضحك عن وصفها
جنان المقهى والاخطب
تضيع الحقيقة مابيننا
ويصلى البرىء مع المذنب
ويهضم فينا الامام الحكيم
م ويكرم فينا الجهول الغبى
على الشرق منى سلام الودو
د وان طأطأ الشرق للمغرب
لقد كان خصبا بجدب الزما
ن فاجدب فى الزمن المخصب

ويطول بنا الحديث اذا أردنا أن ننقل من قصائد حافظ التى لاتنفصل بحياة مصر اتصالا مباشرا دائم المله لما أصاب مصر فى حريتها وفى اخلاقها وكرامتها . لسكنك وقد رأيت هذا تستطيع أن تقدر ماتفيض به قصائده من مصر من قوة العاطفة ومن صدق الاخلاص ومن جلال الروعة مما يجعلك تحس احساسا ماديا بأن الوطن تجسد فى نفس هذا الجندى الشاعر حتى ليكون حقا اذا أريد أن يكون لمصر تمثال أن يكون تمثال حافظ متلفعا فى عباءة الشاعر ممسكا بأحدى يديه قيثارته وبالاخرى سيف الجندى. هو هذا التمثال الذى يرمز به لمصر . وهل نرى قصائد مصرية تحكى فى قوتها وفى جلالها وفى عمق عاطفتها قصائد حافظ عن حادث دنشواى. لقد خلد حافظ بشعره هذا الحادث الذى يقوم علما فى تاريخ مصر السياسى وجسده بجسيدا ماتحسب مرور الزمن الا ليزيد الصلة بين الشاعر والحادث وبين النهضة التى سرت فى مصر وما كان لحافظ من فضل فيها . وكيف نريد تصويراً لهذه المأساة التى حكم فيها على أهالى دنشواى بالشنق والجلد والسجن فكان يشنق أحدهم ويبقى معلقا بحبله حتى يجلد اثنان وأهل هؤلاء واولئك ينظرون اقوى من قوله:

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا
بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لاهلوا
بالظمى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكاسه
بين الشفاه وطعمه لايعذب
موتان هذا عاجل متنمر
يرتو وهذا آجل يترقب

ويذكر دنشواى كذلك فى قصيدته (السياسة والشعر) وداعا للورد كرومر فيقول اشارة الى مأزكى حادث دنشواى فى النفوس من ظمأ للعدل والحرية :

قتيل الشمس اورثنا حياة
وأيقض هاجع القوم الرقود
قليت كرومراً قد دام فينا
يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتعف مصر آن بعد آنا
بمجلود ومقتول شهيد
لتنزع هذه الاكفان عنا

يشهد شعر حافظ أن فطرته غالبت كل صور التقليد وطلبتها وسلكت به السبيل التي أعد القدر له وظلت به فيها حتى بلغت به الى الاوج والذروة منها : في هذه الفترة انطبعت حياة الشعب المصري في نفس حافظ واوحت اليه كما أوحى له حب مصر كل شعره . فالشعب المصري ظمىء للحرية في ظلال الدستور فليكن حافظ الصوت القوي الذي ينشد أغاني الحرية ويترنم باسم الدستور . والشعب المصري ظمىء للعلم الصحيح وللجامعة مهد هذا العلم الصحيح فليكن حافظ الصوت الذي يرتفع طالبا للجامعة ودفاعا عنها . والشعب المصري له كل المصلحة في أن تكثر بينه المعاهد والجمعيات الخيرية ، فليكن حافظ هو الذي يتكلم باسم هذه المعاهد ويدعو الناس الى عونها . وكلما شعر الشعب المصري بحاجته الى شيء أو بتألمه من شيء وجد في حافظ الصوت القوي الذي يرتفع طالبا مايطلب الشعب متألما لما يتألم منه الشعب حافزا الشعب الى مزيد مما يطلب مزكيا في نفسه مزيدا من الالم للامر الذي منه يتألم . وليس الا أن يقرأ الانسان جزأي ديوانه الثاني والثالث ليرى هذا الانتقال المعنوي في نفسيته وليرى صدى حياة الجماعة مترددا في أنغام شعره .

وانه في هذه الفترة من فترات حياته ليمدح عباس وليمدح السلطان عبد الحميد كما أنه كان يمدحهما من قبل . لكنه يمدحهما بلغة جديدة وبلهجة جديدة . ليس هو حافظ النظام الذي يريد أن يكون شاعر الامير أو شاعر الخليفة . ولكنه حافظ الذي ينطق بصوت الشعب ويقص ظلاماته ويتحدث عن آماله ومطالبه . وبحسبك لتقدر ما كان يحس هو من ذلك ، أن تقرأ هذا المطلع من قصيدة له في تعليم البنات :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي
في حب مصر كثيرة العشاق
اني لاحمل في هواك صبابة
يامصر قد خرجت عن الاطواق
لهفي عليك متى أراك طليقة
يحمي كريم حماك شعب راق
وأن تترنم بقوله :
اذا الله أحيى أمة لن يردها
الى الموت جبار ولا متكبر

بحسبك أن تقرأ هذا الشعور لتقدر شعوره بأنه يتحدث باسم أمة وأنه يحس بذلك احساسا عميقا حين يتحدث الى خديوي مصر أو الى خليفة المسلمين ، وماله لايحس بذلك وهو يقول :

لعمرك ما أرقت لغير مصر
وما لي دونها أمد يرام

ثم ماله وهو يحس ذلك لايقول في رجال المابين الهمايوني عقب صدور الدستور العثماني :

ولي زمان المهتدين كما انطوى
جيل الشيوخ وامرة الخصيان
لا السيف يذهب بالمسيء ولا الرؤى
تجدي المسيء ولا رقى الشيطان

وضم الكتاب وسيق جمهم الى
يوم الحساب ووقف الاذعان

وهو في تلك الفترة التي بلغ الاوج فيها وأصبح صوت شعب مصر قد أصبح كذلك صوت الشرق وصوت الاسلام . والواقع أن الصلات التي كانت تجمع الشرق والاسلام في ذلك الظرف والتي كانت تتمثل في دولة الخلافة قد أتاحت لهذا الذي تمثلت مصر في فؤاده أن يحيط نفسه بهذه الهالة التي تكلم العربية وان كانت على رأس امة الخلافة دولة لاتعرف غير التركية . وانك لتقرأ قصائده في الدستور العثماني وفي فتنة الاستانة وخلع عبد الحميد وتولية رشاد فتقرأ عبارات صادرة من أعماق النفس والفؤاد ولترى صورة جديدة في الشعر العربي لم تعرف من قبل في مختلف عصور الشعر العربي الا في أبيات قليلة متفرقة هنا وهناك في شعر المعري والمتنبي من غير أن تجتمع في قصيدة تدل على أن الشاعر قصد بهذه الابيات الى غاية اجتماعية اراد الاعتماد لبلوغها على الشعب وتحريك لنفسه .

وهذه الوجهة الجديدة للشعر العربي مما اختط حافظ هي التي جعلت مراثيه ومدائحه مقصودة بها غاية غير الغاية التي كان يقصد اليها فيما مضى . فهو اذ يبكي محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين واسماعيل صبري وعبد الخالق ثروت وغيرهم لم يبك للبكاء ، ولكنه اراد أن يقيم من الشعر العربي تماثيل لهؤلاء الرجال يبنيهم بها بعد موتهم في نفوس الاجيال التي تخلفهم لتكون انباؤهم حافزة غيرهم لعمل كعملهم . وان الذين عرفوه ليدركون هذا لكثرة ماكانوا يسمعونه يردد قول القائل :

يبني الرجال وغيره يبني القرى
شتان بين قرى وبين رجال

وبعد أن عمل حافظ مصر والشرق والاسلام بدأت نفسه تتسع وتمتد وبدأ يصبح بلغته العربية الصريحة شاعرا عالميا . وقصيدته في زلزال مسينا آية تدل على هذا ، وتدل عليه في ابداع وروعة قل نظيرها . وأحسب لو أن حافظا استمر في هذا الطريق الذي توخى فطرته لربة شعره لحلق في الشعر العالمي الى سماء غاية في الرفعة ولنقل هذا الشرق وأبناءه في نظر العالم خطوة كبرى . لكن طورا جديدا من أطوار حياته النفسية كسر أجنحته وهوى به من سمائه . وهذا الطور سنعرض له بعد قليل

في تلك الفترة التي بلغ شعر حافظ فيها الاوج والذروة يلاحظ قارىء هذا الشعر ملاحظة لها دلالتها في تصوير حياة نفس حافظ . فهذا الشعر ينزع الى التصوير المحسوس نزعة صريحة ظاهرة تجعلك في كثير من الاحيان ترى خواطر حافظ فيه وكأنها لوحة مرسومة أمامك تقع عينك منها على الدقيق والجليل . اقرأ القصيدة التي رفعها الى الامبراطورة أوجيني عند قدومها الى مصر بعد زوال ملكها ووصفه لقصر الجزيرة فيها . اقرأ في قصيدته التي مطلعها « أثني الحجيج عليك والحرمان » وصفه للجيش العثماني . اقرأ قصيدته في حفلة رعاية الاطفال . اقرأ في قصيدته عن نكبة مسينا بالزلزال هاتين الصورتين :

خسفت ثم أغرقت ثم بادت
قضى الامر كله في ثوان
القت الارض والجبال عليها
وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلي حقداً عليها فتنثـ
ـق انشقاقا من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجما وقذفا
بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار ردا عليها
جيش موج باني الجناحين دافي
فهنا الموت أسود اللون جون
وهنا الموت أحمر اللون قاني

* * *

رب طفل قد ساخ في باطن الار
ض ينادي امي ، أبي ، ادركاني
وفتاة هيفاء تشوى على الجم
ـر تعاني من حره ماتعاني
وأب ذاهل الى النار يمشي
مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بناته وبنيه
مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو ناج
من لظاها ولا اللظى عنه وان

هذا الجانب التصويري كان أقوى الجوانب في حياة نفس حافظ . وهو قد كان كذلك منذ نشأته . وهو قد كان خير عون له على اداء رسالته في انهاض همة الشعب المظلوم بتصوير مظالمه وتجسيمها على نحو مارأيت من صور قدمت شيئا منها حين تحدثت عن شعره في حادث دنشواي وفي غيره من الحوادث . وهو لذلك جدير بعناية خاصة ممن يريد بحث حياة حافظ وشعره بحثا لايتسع له المقام هنا .

ظل حافظ يقتحم بشعره الميادين ويحطم ما حوله من الاوهام ويستنهض الهمم حتى سنة ١٩١١ ، أي نحو خمسة عشر سنة كاملة . والتي من بعد هذه السنين بصره فيما حوله فاذا القوى التي يحارب أشد منه أيداً واذا الشعب الذي يستنهض أضعف من أن ينور وان يلق عن ظهره اعباء الظلم التي أناخت عليه من مختلف النواحي . هنالك وقف متلفتا يسائل شعره ان كانت ما تزال به قوة جديدة قديرة على أكثر مما صنع وعلى تحريك الشعب وقهر الظالمين . وما نحسبه يئس من قوة شعره . ولكنه يئس من الشعب الذي لم يتحرك واياه بمقدار ما اراد . كان حادث دنشواي فثار له الشعب فعدلت انكلترا عن خطة مناوأة الخديوي عباس الى مصانعته وبعثت بسير الدون جورست بديلا من لورد كرومر فاذا الخديو يسارع الى الرضى عن هذه المصانعة واذا صنائعه يصبح أكثرهم صنائع ممثل انكلترا في مصر واذا هذه الجذوة التي كان عباس حاول من عوامل توقدها تهدأ شيئا فشيئا . ثم يخلص المصريون فيما بينهم خلافا شديداً يزيده حدة من قومه يأسا . أفيلقى لربة شعر العفاف وتنتقم بالشعر على صورة طالسية على نحو ماصنع في حادث مسين ؟! ولكن لمن ينتفي ؟ فالولاة الظالمين الذين عصفوا ببلاده وبالشرق وبالاسلام ! أف للشرق وأف من الغرب ! لاخير في هذا ولا في ذاك . والخير في رأي حافظ أن يعلن اليأس والهزيمة . واليأس احدى الراحتين . والخير في أن يستريح مرة ثالثة مرة في الحكومة . وفي أن يقبل ماعرض عليه من وظيفة في دار الكتب .

واستراح في هذه الدار عشرين سنة لم فيها شاعر الظروف التي تسمح له بقول الشعر أو تقتضيه قوله ولذلك كان شاعر رثاء أكثر منه كان شاعرا في غير الرثاء من فنون . بل هو ترك فنون الشعر جميعا الا في فترات قليلة غاية الندرة واطمأن الى مباحثه في اللغة العربية ينهل من دار الكتب في أمرها مايشاء لهوى

على أنه مالبث أن شعر باقتراب موعد احالته الى المعاش حتى تجدد أمله في الشعر وطمع في أن يحمل من جديد فيثاره ليعظم همة الشعب . والعجب انه طمع في ذلك بحوار الشاب الذي كان ينشد الجموع من ثلاثين سنة مضت فيهزها هزا . واستعدادا لهذا اليوم الذي يقف فيه ينشد الشعب وضم قصيدة من أبياتها على مائة وخمسين نثرت منها الصحف التي القليل ، وهي تتحدث عن الجياد البريطاني الظافر وعن سياسة صدقي باشا ، وهذه القصيدة هي التي يقول فيها عن صدقي باشا

يا آلة للقاسطين ودمية
في قبضتها النهش والانياب

والتي يقول فيها فيه متحدثا عن وفد وزارة مصر الحاضرة بعد وصف أفعاله

لاتم أحى ضميره ليذوقها
غصصا وتلصف قلبه الاكباد

ولعل القارىء يشعر في هذين البيتين بما كان في تلك القصيدة من قوة وبما دلا على وحدة الحياة في نفس حافظ وحدة نفسها الموت في يوم ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢ ، البس مصر والبس الشرق والبس الشعر والبس الاقطار عليها ثوب الحداد .

محمد مندور

السياسة

الاشتراكات الشهرية بالسياسة

قررت ادارة السياسة تسهيلا لحصول القراء على الجريدة في منازلهم وفي ساعة مبكرة الصباح أن تفتح باب الاشتراكات الشهرية

قيمة الاشتراك الشهري ١٢ قرشا تدفع سلفا لادارة الجريدة بشارع بلغ نمرة ٧٠ وترسل الجريدة للمشتركين بمنازلهم في نحو الساعة السادسة من صباح كل يوم

حافظ ابراهيم

أملأى الارض من حداد وغيهب ... مال نجم البيان عنك وغرب
وخبا من مصابح الفكر نور ... كان أمضى من الشهاب وأثقب
وطوى الموت هالة كان يشى ... كل أفق الى سناها ويذهب
يا سماء النبوغ ما كل يوم ... من بنى الشعر تظفرين بكوكب
ذهب الشاعر الذى ردد الشـ ... ـرق صدى شعره الجميل المحبب
ومضى الناثر الذى صور النفـ ... ـس وأبدى مر الضمير المحجب
الاديب العريق فى لغة الضا ... د وناموسها الصحيح المرتب
لم يكن شاعر القديم ولا كا ... ن لآداب عصره يتعصب
كان يعنى بكل فذ من القو ... ل ريزهى بكل حسن ويعجب
شاعر الحب والجمال ورب الـ ... ـمنطق الحق والبيان المؤدب
شعره من ينابع السحر يند ... ـساب وفى عالم الحقيقة ينصب
عاطفى القصيد يعبث بالآلـ ... ـباب أسلوبه الرشيق ويلعب
وخيال يسمو الى ما وراء الـ ... ـكون من عالم اليقين ويذهب
ومعان أرق من نسمة الفجـ ... ـر ولفظ من سلسل الخمر أعذب
وبيان يسيل فى كل نفس ... فعله من غرائب السحر أغوب
وقوافٍ كأنها نغمات ... هاجها الشجو فى يراع مثقب
وكأن الاوزان رجع مثان ... ترقص الروح وقفهن وتطرب

***

بؤساء الحياة من لكموا اليـ ... ـوم على الحادثات والعيش أخطب
ضاقت الارض بالحسان وفاضت ... بالاذى أبحراً تضج وتصخب
فابحثوا فى شعابها عن مقيل ... وانشدوا من منافذ النجم مهرب
قد فقدتم نصيركم وسليم ... عضداً شد أزر يقال ويسلب
عقل الموت مقولا منه عضباً ... وطوى مهجة وأطبق هيدب
سكن اليوم عن شجاكم فؤاد ... ذاب من رحمة لكم وتصبب
وخفت أعين بكتكم بدمع ... لم تدع منه ما يراق ويسكب
الرفيق الحانى على كل قلب ... أنشب البؤس فيه ناباً ومخلب
والخفيف الخطى الى كل نفس ... مال عنها نصيرها وتنكب
فاذكروه على الليالى اذا ما ... زحم الدهر ركنكم

***

من لصرعى الهموم بعدك يا حا ... فظ من للحزين ! من للمعذب !!
عجب صبرها على خطبك الدا ... وى وصبر البأساء من ذاك أعجب
كنت برآ بها وأحنى عليها ... من فؤاد الاب الشفوق وأحدب
قم وشاهد مآتم الشرق وانظر ... كيف يبكى النبوغ فيك ويندب
قسماً لو يرد (هيجو) الى العيـ ... ـش لألقى لك الزمام وقرب
ومشى فى يمينه غار باريـ ... ـس الى رأسك الكريم وعصب
وتمنى الذى كتبت عن البؤ ... س ورد الاصيل دون العرب(١)

***

نهضة البلاد بيان ... شيد من ركنها وشاد وطنب
وحياها من روحه وقواه ... ما أفاد البلاد عزاً وأكسب
هز أشباهها الكماة وأحيى ... أملا فى صدورهم يتوثب
لو شهدتم غداة ثورتها الكـ ... ـبرى لجاج النفوس وهى تلهب
لرأيتم فى ثورة النفس منه ... محنقا من قساور الغيل مغضب
لم يزل منه فى المسامع صوت ... تترقى الظبى صداه وترهب
نافذ فى الصميم من باطل القـ ... ـوم كما ينفذ السنان المذرب

***

حافظ الود والذمام سلاما ... لم يعد بعد من يود ويصحب
كنت نعم الصديق فى كل آن ... حين يرجى الصديق أو حين يطلب
لم تغيرك من زمانك دنيا ... وحياة باهلها تتقلب
خلق رضته على شرعة الصـ ... ـدق وان خانك الرجاء وكذب
وإباء حميته من صغار ... ويريق من المواعد خلب
وفؤاد لغير عاطفة الو ... جدان لايدنى ولا يتقرب
وضمير لايبتغ المال منه ... وبلوغ النجوم من ذاك أقرب
ولسان حفظته عن مسؤال ... لايمين الكلام أو يتذبذب
يلفظ الروح صادياً واذا لم ... نصف للماء .ورد لم يشرب

(١) اشارة الى كتاب البؤساء الذى عربه الفقيد عن فيكتور هيجو

حافظ بك ابراهيم

أبكى وأبكى ثم أبـ ... ـكى والاسى باق دهين
أبكى عليك ولم أكن ... لك بالصديق ولا الخدين
أبكى عليك وما عرفـ ... ـتك أو بسطت لك اليمين
أبكى أمام الكاتبيـ ... ـن الناثرين القاطمين
يا ناثرا الفاظه ... هى ملء سمع السامعين
يا شاعرا ملك القلو ... ب بشعره العذب الرصين
شعر جرت فيه المدا ... مع رحمة باليائسين
شعر هززت به قلو ... ب الغافلين الجامدين
وبعثت فيها العطف واسـ ... ـتطرت جدوى المحسنين
شعر به رجعت أنفـ ... ـاس الهوى للعاشقين
من أنة أو آهة ... فى الليل ترسلها حنين
شعر تثور حماسة ... منه قلوب الغاشمين
يستولد الاقدام فى ... قلب الجبان المستكين
شعر به صورت كيفـ ... ـية ظلم الظالمين
وبكيت فيه مصرع الـ ... ـشهداء فى الحق المبين
وحطمت فى مصر اليرا ... ع يراع خير الكاتبين (١)
وظننت فى مصر الظنو ... ن وقلت رغم الكارهين
ما مصر بالبلد الأمـ ... ـين لأهله والمخلصين
لكنها بلد اللذيـ ... ـن عدوا عليها جائرين
قد قلتها حقا ولـ ... ـكن لا نزال مكابرين
قد حصحص الحق الصرا ... ح فما لنا متقاعدين
حشنا جميعا فى الحيا ... ل وهولتك فى اليقين

***

يا مصر شاعرك الكبيـ ... ـر قضى فماذا تصنعين
كم ذا نقول فيه (م) فهل ... ترانا قائلين
القول لا يجدى فقد ... ولى زمان القائلين
فدعى المقال وخلدى ... يا مصر ذكرى العاملين
اتصل للتاريخ لو ... لاه لظلوا خاملين

***

يا شاعرا فجعت به الـ ... ـقصحى فناطقها حزين
قد كنت شاعرها المكيـ ... ـن وكنت حافظها الامين
هذا مقامك لم يفتـ ... ـكم بكت الناهضين
وبكيت نفسك قبل ما ... تبكيك بالدمع السخين
فاذهب عليك تحية الـ ... ـرحمن تترى كل حين
وانعم بجنات النعيم (م) ... مع الرفاق الآخرين
أنسوا بقربك منهم ... وتركتنا مستوحشين

(١) اشارة الى قصيدة اليراع فلا تعنى الخ ،

النفقيد التى مطلعها « حطمت

الاسكندرية

ابراهيم زكى

القاضى بالمحاكم الاهلية

صفحات نقية بمداد الـ ... ـحق فى محتلى العظائم تكتب

***

خانني فيك منطقى وعصانى ... قلم طالما أفاض وأسهب
آب بالشعر من مصابك يبكى ... رزءه فيك والرجاء المخيب
أفت من أمة بهم أنزل اللـ ... ـه هداه على الشعوب فتوب
لم يزل منكو على لارض ظـ ... ـل وشعاع هاد وغيث مصوب
ويجوب الحياة فى كل آن ... هاتف منكو وطيف تأوب
حضر فى القلوب أنتم وان كنـ ... ـتم على ملتقى النواظر غيب

الرثاء فى شعر حافظ

للدكتور طه حسين

رحم الله حافظا . ما أرى ان الذين سيعرضون لرثائه من الكتاب والشعراء سيوفونه حقه أو يبلغون من ذلك ما كان يبلغه هو حين كان يعرض لرثاء الاعلام الذين كان يفقدهم هذا البلد من حين الى حين

فقد كانت نفس حافظ رحمه الله تمتاز بشيئين أتاحا لها اجادة الرثاء واتقانه والبراعة فيه . كانت قوية الحس كاشد ما تكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال مزاج. وكانت الى ذلك وفية رضية لا تستبقى من صلاتها بالناس الا الخير ، ولا تحتفظ الا بالمعروف ، ولا ترى للاحسان والبر جزاء بعد الاشادة به ، والثناء عليه ، ونصبه للناس مثلا يحتذى ونموذجا يؤتسى . وكانت الى هذا وذاك ترى دينا عليها لا أقول لنفسها ولا أقول للناس وانما أقول للفن والحق والتاريخ . لا ترى خيراً الا سجلته ، ولا تحس معروفاً الا أذاعته ، كأنما كان الذين يحسنون الى أنفسهم أو الى خاصتهم أو الى جماعة من الناس قليلة أو كثيرة يحسنون الى حافظ نفسه . وكأنما كان حافظ يؤمن بان من الحق عليه أن يشكر للمحسن احسانه ، ويسجل لصاحب المعروف معروفه مهما يكن مصدر هذا الاحسان والمعروف ، ومهما يكن موضوعها . فهذا أحد الامرين الذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ . حس قوى دقيق ، وخلق رضى كريم . فاما الامر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليا.

رحم الله حافظا لم يكن فرداً يعيش لنفسه بنفسه وانما كانت مصر كلها بل الشرق كله بل الانسانية كلها فى كثير من الاحيان تعيش فى هذا الرجل . تحس بحسه وتألم بقلبه وتفكر بعقله وتنطق بلسانه . لا أعرف بين شعراء هذه الايام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لطباع نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله. فالذين يقرأون شعره الآن والذين كانوا يقرأون شعره فى حياته ، والذين كانوا يستمعون له اذا أنشد الشعر فى المجالس الخاصة والمجامع العامة. يؤخذون بهذه الصورتين الواضحتين كل الوضوح : صورة الشعب وما يجدون من ألم وأمل ، وصورة حافظ وما يحس من يأس أو رجاء . كذلك كان حافظ ، وكذلك كانت نفسه ، وكذلك كانت الصلة بينه وبين الناس . فليس غريبا أن تقم الكوارث من نفسه أشد وقم ، وان تثير فيها عواطف لذاعة من الالم والحسرة ؛ ومن الحزن واللوعة . وليس غريبا أن ينطلق لسانه بالشعر فى تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد فى غير مشقة ولا عناء ، ويصل الى هذه المنزلة التى لا يصل اليها الشعراء الا أن يكونوا مطبوعين أو ان تكون الظروف قد واتتهم وأتاحت لهم من أسباب القدرة والبراعة ما يقربهم من المطبوعين . وهى ان يبلغوا بالذين يقرأونهم ويستمعون لهم مثل ما فى أنفسهم من الحزن واللوعة ومن الحسرة والاسى ، فاذا بكوا بكى معهم الناس صادقين . واذا جزعوا جزع معهم الناس مخلصين

هذه منزلة لا أعرف كثيرا من شعراء العربية فى العصر الحديث قد بلغوا منها ما بلغ حافظ ، فبين شعرائنا فى هذه الايام من يرثون فيحسنون الرثاء ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله وما آثره ؛ ويتقنون وصف الحزن عليه والاسى لفراقه ، ويبلغون البراعة فى ضرب الامثال السائرة وارسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن وقعه فى القلوب ، وما يلذ الاستماع والعقول معا ، ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله فى النفوس ، وعواطف الحزن الكامنة ، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما كان يفعل حافظ لان اكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة هم يقصدون من الرثاء على انه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه وعلى أن مكانتهم الادبية تضطرهم الى أن تكون لهم فى الرثاء كلمة مسموعة ، أما حافظ فكان يرثى لانه يحزن وكان يحزن لانه يحب وكان يحب لان الله قد وهبه نفسا رضية مؤثرة لم تبرأ من شىء قط كما برئت من الاثرة وكما برئت من الضغينة والحقد

كان حافظ ينتهى من حب أصدقائه الى حيث لا يقدر أن بينه وبينهم فرقا الى حيث يراهم جزءاً من نفسه ؛ وكان حافظ كما قدمت يحب الشعب ويحس بحسه ويشعر بشعوره فكان اذا رثى علما من أعلام مصر كأنما يرثى نفسه أولا وكأنما يرثى أمته ثانيا . وقد أتيح لحافظ أن يكون صديقا وفيا لهؤلاء الاعلام الذين سعدت مصر بحياتهم وشقيت بوفاتهم منذ أول هذا القرن . وقد تقول أن هذه الصداقة أتيحت لغير حافظ من الشعراء ، ولكنى حدثتك عن وفاء حافظ وايثاره وزهده فى متاع الدنيا واشتغاله عن المنافع العاجلة بالمثل العليا . فلا بدع أن يمتاز رثاء حافظ بصدق اللهجة وأن يبلغ من نفوس الناس ما لا يبلغه رثاء غيره من الشعراء المعاصرين

أراد قدامة فى اواخر القرن الثالث للهجرة أن يضع للشعر أصولا ونظما لا يجوز للشعراء أن يعدوها ويخرجوا عنها . فلما بلغ لرثاء زعم وزعم معه النقاد الذين جاءوا من بعده أن الرثاء والمدح فن واحد فى حقيقة الامر وان الفرق بينهما ان أحدهما يتناول الميت والآخر يتناول الحى ، وان مظهر هذا الفرق أن من ذكر الميت لجأ الى الفعل الماضى فحكى عنه وقال كان كريما او كنت كريما ومن ذكر الحى لجأ الى الفعل المضارع او الى ما فى حكمه من انواع الجمل فقال هو كريم او انت كريم او ما يشبه هذا . ولم يهتد قدامة واصحابه فى الرثاء الى اكثر من هذا المقدار او قل انهم لم يهتدوا الى شىء فان العواطف التى تبعث على الرثاء غير العواطف التى تبعث على المدح وقوام ذلك الحزن واليأس ، وقوام هذه اللهجة والرجاء . وقد يكون الاعجاب مشتركا بين الرثاء والمديح ولكن قل ما يكون الاعجاب وحده مصدرا لمدح او رثاء حتى تصحبه رغبة او رهبة او امل او حسرة او لوعة او قنوط واكبر الظن ان كثيراً من الشعراء المعاصرين الذين يذهبون مذهب البارودى وحافظ فى الشعر ويحيون فيه سنة القدماء لا يزالون يرون المدح والرثاء كما كان يراهما قدامة وابن رشيق وغيرهما من النقاد المتقدمين تعديداً للمآثر والمفاخر ولونا من ألوان المدح للاموات . وكان حافظ رحمه الله فى أول عهده بالشعر يذهب هذا المذهب ويتلو فيه لانه كان يقلد القدماء تقليداً ، ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته أو تكاد تذهب بها . فأنت اذا قرأت رثاءه لبعض الاباظيين فى الجزء الاول من ديوانه أعجبت باللفظ اكثر مما تعجب بالمعنى . ولم تجد فى هذا الرثاء حزنا صادقا ولا لوعة محرقة وانما أحسست كأنك تقرأ شعر طالب وضم أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها فأخذ معانى القدماء وذهب مذهبهم فى العلو السقيم أحيانا وكأنه لم يدفع الى هذا الرثاء بطبيعته الرقيقة المحزونة . وانما دفع اليه بمجاملة اصدقائه من الاباظيين فانظر الى هذه الدالية مثلا فسترى ان حافظا رحمه الله قد كان فيها عيالا على دالية أبى العلاء التى مطلعها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى
نوح باك ولا ترنم شادى

أخذ معنى من معانيها فجعل يطوله ويعيد فيه ويقلبه على وجوه عدة ولكنه لم يجوده ولم يأت فيه بطائل ولم يبلغ منه بعض ما بلغ ابو العلاء قال حافظ :

أيهذا الثرى الام التمادى
بعد هذا أأنت غرثان صادى؟
أنت تروى من مدمع كل يوم
وتغذى من هذه الاجساد
قد جعلت الانام زادك فى الدهـ
ـر وقد آذن الورى بالنفاد
فالتمس بعده المجرة وردا
وتزود من النجوم بزاد

فانظر الى هذين البيتين الاخيرين فسترى فيهما مبالغة اشبه بمبالغة الناشئين فى الشعر لا تستقيم مع العقل ولا تكاد تدل على شىء وكيف بشاعر يزعم ان التراب قد اكل الناس حتى كاد يأتى عليهم وشرب الدموع حتى كاد يستغرقها وينصح لهان يلتمس شرابه فى المجرة وطعامه فى النجوم وحافظ يمضى فى التفصيل والتطويل دون ان يبلغ قول ابى العلاء :

خفف الوطأ ما اظن اديم الـ
ـارض الا من هذه الاجساد
وقبيح بنا وان قدم العهـ
ـد هوان الاباء والاجداد

ولكنك تلمح هذا النوع من القصور فى اكثر القسم الاول من شعر حافظ لا فى الرثاء وحده بل فى فنونه الشعرية كلها فحافظ لم ينشأ شاعراً وانما اكتسب الشعر اكتسابا وانفق حياته كلها فى تجويد شعره وتحسينه . على انه لم تكد تتقدم به الحياة حتى ظهرت فيه هذه الخصال التى اشرت اليها والتى قضت له بالتفوق فى الرثاء فانظر اليه حين رثى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده كيف غلبت طبيعته صناعته وكيف تحدث قلبه وايمانه الى قلوب المسلمين وايمانهم . وكيف انتقل حزنه ووفاؤه الى نفوس الناس فعلمهم كيف يجهلون لذع الحزن وكيف يستعذبون لذة الوفاء وهو على ذلك كله لم يخل باصول الفن كما عرفها المتأدبون القدماء من تعديد المآثر والمفاخر وهو متين رصين اللفظ بديع الاسلوب لا يعرف الضعف ولا الوهن الى شعره سبيلا

سلام على الاسلام بعد محمد
سلام على ايامه الغضرات
على الدين والدنيا ، على العلم والحجى
على البر والتقوى ، على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فاصبحت أخشى أن تطول حياتى !
فو الهفتى واقبر بينى وبينه
على نظرة من تلكم النظرات؟
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً
كأنى حيال القبر فى عرفات؟
لقد جهلوا قدر الامام فاودعوا
تجالده فى موحش بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لازلوا
بخير بقاع الارض خير رفات

فى لفظ هذه الابيات من الروعة والرصانة ما عرفناه فى شعر حافظ كله أو أكثره ومعانى هذه الابيات مألوفة شائعة ليس فيها غرابة ولا ابتكار ولكن فى الابيات مع ذلك شيئا لا أدرى ماهو ؟ يملأ النفوس لوعة والقلوب أسى بل أنا أدرى ماهو ، هو قبس من هذه النار التى كانت تضطرم فى نفس حافظ حزنا صادقا على صديقه ووليه وأستاذه تقذف هذا القبس الصادق فى هذا الشعر العادى فجعله حزنا كله . ثم انظر الى هذا الجزع العظيم كيف تصور كأنه طوفان مهلك يغمر كل شىء ويأتى على كل نفس حتى فزع الشاعر منه وقد ملكه الذهول واستأثر به اليأس فقال :

تباركت هذا الدين دين محمد
أيترك فى الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى
ولانت قناة الدين للغمزات

ثم انظر الى هذين البيتين كيف يصوران اليأس اللاذع والقنوط المميت :

مددنا الى «الاعلام» بعدك راحنا
فردت الى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغى سواك عيوننا
فعدن وآثرن العمى شرقات

ولو انى ذهبت احلل القصيدة كلها واختار منها لما تركت منها بيتا واحداً فكلها جيد اما لجدة المعنى واما لرصانة اللفظ واما لصدق اللهجة واما لهذه الخلال كلها مجتمعات والنظر الى هذه الابيات التى وصف فيها حافظ حزن الشرق على الاستاذ الامام وهى الآن أصدق ما يقال فى حزن الشرق على حافظ نفسه !

بكى الشرق فارتجت له الارض رجة
وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون ، وفى الصين جازع
وفى مصر باك دائم الحسرات

وفي الشام مفجوع ، وفي القرس نادب
وفي تونس ماشئت من زفرات

ولست أقف عندما في هذه القصيدة من وصف للاستاذ الامام من نواحيه المختلفة لا لانى مجمل بل لانى اكره أن أظلم غيري من الاصدقاء الذين يكتبون عن حافظ ولكني أحب أن تقرأ معي هذه الابيات التي ختم بها حافظ رثاءه للاستاذ الامام لتتمثل مافيها من الحزن الصادق والاعتراف بالجميل ، وكان حافظ أشد الناس اعترافا بالجميل وأحرصهم على شكر من أحسن اليه أو شملته منه يد مهما تكن يسيرة ضئيلة .

قال حافظ :

فيا منزلا في عين شمس اظلنى
وارغم حسادي وغم عداتي
دعائمه التقوى وآساسه الهدى
وفيه الايادي موضع اللبنات
عليك سلام الله امالك موحشا ؟
عبوس المثاني بعد نفر العرصات؟
لقد كنت مقصود الجوانب آهلا
تطوف بك الامال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة
ومطلع أنوار وكنز عظات

هذه قصيدة خالدة من غير شك وهي لاتستمد خلودها ممن قيلت فيه وحده ولا ممن قالها وحده ، وانما تستمد هذا الخلود من الرجلين جميعاً . فقد كانت حياة الاستاذ الامام شيئا رائعاً واستطاع حافظ أن يعطي منها صورة رائعة . وما اكثر ما قال الشعراء في الاستاذ الامام بعد موته ولكنك تستطيع أن تقرأ هذا الشعر الكثير فتستجد منه الحسن الجميل وتستجد منه المتوسط وتستجد منه الردئ دون ان تظفر بمثل هذه القصيدة روعة وجمالا وصدق لهجة واستحقاقاً للخلود .

ورثى حافظ أستاذه البارودي فيمن رثاه من الشعراء فوفق الى جودة اللفظ ورصانته ووفق الى احياء الاسلوب القديم في رثاء هو بالمدح أشبه . ولكنه على ذلك لم يبلغ أن يمس القلوب بهذا الحزن اللاذع . ومع انه لم يكن يريد الصدق في أول هذه القصيدة حين يقول:

وددوا على بيانى بعد محمود
انى عييت واعى الشعر مجهودى
ما للبلاغة غضبى لاتطاوعنى ؟
وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

فليس من شك انه قد صدق وقال الحق فعي واعى الشعر مجهوده وامتنعت عليه البلاغة وقصر عليه حبل القوافي على ماحاول من تقليد مسلم بن الوليد في داليته المشهورة :

لاتدع بى الشوق انى غير معمود

ومصدر ذلك فيما يظهر ان حافظا تهيب امام الشعراء ميتا كما كان يتهيبه حيا واعتقد انه مهما يقل في البارودي فلن يبلغ من رثائه ما يريد فقل ذلك من حده وفت في عضده وقصر به عن غايته ومصدر ذلك ايضا فيما يظهر ان موت البارودي لم يكن رزءاً شعبيا او لم يره الناس كذلك في وقته وانما كان رزءاً للادباء . وابرع ما يكون حافظ في الرثاء حين يصور حزب الشعب والمه . لذلك أجاد كل الاجادة في رثاء الاستاذ الامام وفي رثاء مصطفى كامل لان الاول كان فقده رزءاً في عظيم من عظماء الدين ومن عظماء النهضة الفكرية والثاني كان فقده رزءاً في عظيم من عظماء السياسة . فكان حافظ في رثائهما ناطقا بلسان الجماهير

وبراعة حافظ في تصوير آلام الشعب كسبت شعره السياسي ورثائه لاصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة غريبة تسيطر حقا على نفوس الجماعات فتفعل فيهما الاعاجيب

انظر الى قوله في رثاء مصطفى كامل

انى ارى وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبار والعظم
ارى جلالا ، ارى نوراً ، ارى ملكا
ارى محيا يحيينا ويبتسم
الله اكبر هذا الوجه اعرفه
هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته
من القلوب اذا لم تسعد الكلم
واقسموا ان تذودوا عن مبادئه
فنحن في موقف يحلو به القسم
لبيك نحن الاولى حركت انفسهم
لما سكنت ولما غالك العدم
جئنا نؤدى حسابا عن موانقنا
ونستعد ونستعدى ونحتكم

الا ترى الى هذه الابيات كيف استحضر الشاعر فيها شخص الزعيم يحف به الجلال والعظمة وكيف مهد لهذا الاستحضار بهذا البيت الاول الذي خرج فيه عن طوره العادي وأخرج الناس معه عن أطوارهم وهيأهم لموقف غير مألوف ثم أخذ يدفعهم الى هذا الموقف دفعا ويملأ قلوبهم هيبة واجلالا بهذا البيت الذي ألفه من جمل منقطعة قصيرة وختمه بصورة خلابة رائعة

أرى جلالا . أرى نوراً . أرى ملكا :
أرى محيا يحيينا ويبتسم .

ثم أنظر اليه كيف استأثر به الذهول وغلبه على نفسه وملك عليه كل أمره فصاح

الله اكبر هذا الوجه أعرفه
هذا فتى النيل هذا المفرد العلم

ثم أنظر اليه بعد ذلك وقد كد الجمهور وأنساه نفسه وملك عليه شعوره وحسه وأقنعه بانه أمام الزعيم كيف يتحدث الى هذا الجمهور بهذا الحديث الذي تملؤه المهابة والروعة والحب معا فيقول

غضوا العيون وحيوه
تحيته من القلوب اذا لم تسعد الكلم

ثم يتجه بعد ذلك الى الزعيم نفسه فيصيح صيحة كلها ايمان وطاعة ويقين واعجاب

لبيك نحن الاولى حركت أنفسهم
لما سكنت ولما غالك العدم

هذه ابيات لو قرأها ارسطاطاليس صاحب الخطابة ومنشئ علم البيان لما تردد في أن يتخذها مثلا لما يسميه في الكتاب الثالث من الخطابة وضع الشيء تحت العين

ورثى حافظ قاسما فلم يكن في رثائه اياه شعبيا ولا شاعر جمهور بالمعنى الذي نراه في رثائه للاستاذ الامام ومصطفى كامل وانما كان انسانا حساسا قوى الحس محزونا صادق الحزن ومصريا مشغوفا بمصر من هذه الاحداث التي تلم بها مراعا فتنتزع أعلامها انتزاعا الظر الى قوله

بلى أوهى الاجداث حالية
وأدنى ربوع النيل في عطل
فاذا الكنانة أطمت رجلا
طاح القضاء بذلك الرجل
أو لا أرسلت مرثية
من ادمعي في أثر مرتحل
هاجت بى الاخرى دفين أمى
فوصلت بين مدامع المقل
وان تكاني فيما جمعت به
شعري فهذا الدمع نغم لي

وانظر الى هذه الابيات والى ما أدر للشاعر فيها من المعنى الخصب الكثير في اللفظ العذب القليل

قد كنت أنقانا بنا وكذا
يبقى الابي بصحبة الكسل
لهفي عليك قعدت مرتجلا
لم شك ، لم تستوص لم تنل
قال القضاء يد القضاء فذا
يبكي عليك ، وذاك فجذل

وقد عرض حافظ في هذه القصيدة لرأي قاسم في السفور والحجاب فتحفظ ولم يقطع ولم يعلن مناصرة صاحبه . وكان في ذلك سواء (سواء أراد أو لم يرد) الموقف كثير من المستنيرين في ذلك العصر كانوا يرون رأي قاسم ولكنهم يشفقون من الجهر به ويرجئون الامر الى الايام تقضي فيه بالحق . فانظر الى حافظ كيف يقول :

ان رب رأيا في الحجاب ولم
تعصم فتلك مراتب أسل
الحكم للايام مرجعه
فيما رأيت فهن ولا تسل
وكذا طهاة الرأي تتركه
للدهر ينضجه على مهل
فاذا أصبت فانت خير فتى
وضع الدواء موانع العلل
أولا فحسبك ما شرفت به
وتركت في دنياك مني عم

ثم أثار موت قاسم في نفس حافظ ذكرى أصدقائه الذين ذهبوا من اعلام مصر وقادة الرأي فيها ومن الذين كان يسعد حافظ بمودتهم له وعطفهم عليه وكانوا يسعدون بلقائه وحديثه الحلو وأدبه العذب . فقال هذه الابيات التي تفيض حزنا وأسى وتملأ نفوسنا حزنا وأسى كلما قرأناها . وأينا لا يجد نفسه في هذه المنزلة التي وجد حافظ فيها نفسه يوم مات قاسم فذكر حافظ به موت الذين سيقوه . ولقد مات أصدقاء لحافظ بعد قاسم فذكر بهم قاسما . ومات حافظ الآن فحزنا لموته ونحن نذكر به موت أصدقائنا الذين سبقوه . وكذلك يريد الله أن يجعل قلوب الاحياء قبوراً لاصدقائهم الذين يسبقونهم الى الموت . ومن خير ما في هذه الابيات يأس حافظ مما انتهت اليه الحياة بعد أصدقائه هؤلاء ، ومما انتهت اليه مصر من فساد الحال واعوجاج الامر بعد أن رحل عنها أولئك

قام نستعيد أن نردده الآن بعد موت الذين ماوا من اجلها مصر وقادتها . فليس مصر بالبلد الذي يمكن أن يتمثل فيه بقول الشاعر القديم :

الا مارمنا سيد قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

انما مضى الزعيم أو المصلح فيخلو مكانه ويظل خاليا يتباهاه الناس ولا يذكره منهم الا الاقلون قال حافظ :

وا على دار مررت بها
قفرا وكانت ملتقى الخيل
أخصبت فيها كل غانية
وذكرت فيها وقفة الخلل
ساءلتها عن قاسم فأبت
رد الجواب فرحت في حيل
متعثرا يتثاءبى وهنا
متنحنحا كالشارب الثمل
متذكرا يوم الامام به
يوم انتويت بذلك البطل
يوم احتسبت وكنت ذا أمل
تحت التراب بقية الامل
جاور أحبتك الألى ذهبوا
بالعزم والاقدام والعمل
واذكرهم حاج البلاد الى
تلك النهى في الحادث الجلل
قل للامام اذا التقيت به
في الجنتين بأكرم النزل
ان الحقيقة اصبحت هدفا
للراكبين مراكب الزلل
لله آثار لكم خلدت
صاح الزوال بها فلم تزل
لله أيام لكم درجت
طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لو انها بقيت
او ان ظلا غير منتقل

اترانا نحمل حافظا رحمه الله شيئا غير هذا لو اردناه على ان يصور لاصحابه الاكرمين حال مصر بعد ان تركوها؟ ألسنا نحمله مثل هذا الى الاستاذ الامام والى قاسم ومصطفى كامل والى سعد وثروت بلى لقد قلت لك انى لاأرى ان الذين سيرثون حافظا من الكتاب والشعراء سيبلغون من رثائه ما كان يبلغ هو من رثاء الذين رثاهم من زعماء مصر وأئمتها

على ان لحافظ رثاءا تقليديا او قل رثاء اضطر اليه اضطرارا للمجاملة اولان مكانته كانت تضطره اليه . ومن هذا الرثاء التقليدي ماقاله الشاعر قبل ان ينضج فنه كهذا الرثاء الذي قاله في بعض الاباطيين والذي اشرت اليه منذ حين وكقصيدته التي يرثي بها الانجليز عن فقيدهم الكتشنر فيكتوريا ومن هذا الرثاء التقليدي ماقاله الشاعر وقد نضج فنه وتمت له اداة الشعر فاجاد اللفظ ووفق الى معان حسان : منها المبتكر ومنها المستعار ولكنه على كل حال لم يستطع ان يمس القلوب وان استطاع ان يثير الاعجاب وربما كان رثاؤه لرياض باشا اصدق مثال لهذا النوع من الشعر الذي بكى فيه الشاعر بلسانه

والحافظ فى رثائه بل فى شعره كله صور يلد فيها القدماء ولكنه لم يحققها ويحصلها فكان حافظ يحفل بمثل هذا التحقيق لتصحيح لانه كان يؤمن بروعة اللفظ وأثره فى نفس السامع والقارىء وكان يعتقد ولعله مصيب ان كثيرا من قرائه وسامعيه كانوا لله لا يعنيهم التحقيق ولا التمحيص ولا يفهون الشعر ما يكلفون النثر من الدقة وتجنب المحال فحافظ يجرى الدموع انهارا ويخيل الى نفسه والى الناس ان هذه الدموع الجارية تستطيع أن تحمل الفقيد الى قبره وحافظ يؤجج الانفاس نارا ويخيل الى نفسه والى الناس ان هذه النار تستطيع أن تحرق المشيعين لولا ما يحولها من الدموع . وحافظ كما رأيت يكلف تراب الارض أن يشرب من المجرة ويأكل من النجوم . وحافظ يطلب الى قبر مصطفى كامل أن يكبر ويهلل وأن يلقى ضيفه جاثيا . وقد سألته رحمه الله ذات يوم . كيف تتصور القبر جاثيا فقال دعنى من نقدك وتحليلك ولكن حدثنى أليس يحمن وقع هذا البيت فى أذنك ؟ أليس يثير فى نفسك الحزن ؟ اليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ قلت بلى ! ولكن قال دعنى من لكن واكتف مثلى بهذا .

رحم الله حافظا لم يكن رثاؤه صورة لما يثور فى نفسه ونفس الناس من حزن خصب، وانما رثاؤه يصلح مصدراً من مصادر التاريخ السياسى والاجتماعى فى هذا العصر، فقد كان حافظ يبالغ ويغلو ويطيع الخيال ويضطر الى المحال، ولكنه رغم هذا كله لم يكن يفسد الحقائق ولا يعبث بها وانما كان مؤرخا صادقا للحوادث فى رثائه وشعره السياسى كما كان مصوراً متقنا للنفوس . رحم الله حافظا . ان فصلا قصيرا كهذا الفصل لا يسع رثاءه ولا ينهض بنقده وتحليله كما ينبغى ان يكون النقد والتحليل . وانى لارجو ان نبلغ من ذلك ما نريد فى الكتاب الذى سيهيأ الآن لدرس شاعر النيل .

طه حسين

مصر الاسلامية

وتاريخ الخطط المصرية

دراسات جديدة لنواح ومواقف

هامة فى تاريخ مصر الاسلامية

بقلم

أحمد عبد الله عنان المحامى

طبعة ممتازة بالمطبعة الاميرية بدار الكتب

ثمنه ١٥ قرشا عدا أجرة البريد

ويطلب من مؤلفه بادارة السياسة

أو من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على

ومن جميع المكاتب الشهيرة

ثلاث صور

لفقيد الادب الكبير

محمد حافظ ابراهيم

بقلم شاعر القطرين الاستاذ خليل مطران

رنب الى الصديق الجليل نابغة الادب الدكتور محمد حسين هيكل بك فى كتابة عجالة عن فقد الشرق العظيم المغفور له محمد حافظ ابراهيم للعدد الذى يصدر غداً خصصها بذكراه من « سياسة » فلبيت والم يكن فى الوقت متسع اخترت لهذا العدد ثلاثا من الصور كنت قد صورت بها ذلك الاديب الفذ نظما ونثرا، ظروف مختلفة متباعدة . وسيجد القراء ين يتفضلون بمطالعتها ان تلك الصور الثلاث ما كانت واحدة فى الغرض الاول منها

فنبوغ حافظ من بدء أمره الى نهايته كالمصبح الوهاج وراء مام به من حوادث خاصة عامة فبراز نوره تارة فى لون قاتم وطوراً فى لون زاه ساطع، وكان مهما أشعته آنا يقصر فلا يجز حد الافق القريب، وآنا يطول حتى يمد ويبعد مدى فى آفاق الخيال تبعا لبواعث نفسه فمن تلك البواعث ما كان لمحض الشكاية من أمر خاصة به وهى صغار الهموم، وهنا وجد مجاله ضيقا، ومنها ما كان للتعبير عن شعوره القومى وتأثره بمؤثرات الحوادث الوطنية الجلى، وهنا اتسع مجال فكره ورقى على قدر اتساع الاحساس العام، ورق فبلغ أحيانا أبعد مدى وعلى ذروة من العبقرية

على أن بين كل صورة والاخرى من هذه الصور عدة من السنين لم تقل عن العشر . وليست تلك السنون بحيلتها الا القوى الدورانية التى درت بها ذلك الشهاب مدرجته صعدا وصببا قبل أن تخبو ويوارى فى التراب تاركا وراءه عتمة كثيفة تغشى الابصار والقلوب الى أن يتاح لمحمد ما وتخلص فى النفوس ذكرى حافظ مما يغشى بليها من ألم الفراق فتجتمع نيران تلك الحياة وأوارها فى كوكب زاهر ضخم يتبوأ مكانه بين الكواكب ذات الاقدار الكبرى من سماء المجد القومى المصرى، وعندئذ يصبح ناظرين ابد الدهر بهجة وهدى

أما الصورة الاولى فهى وصفى اياه فى المجلة المصرية تحت عنوان « كيف ينظم شعراؤنا » وقد كثر ما تناقل هذا الوصف وكثر ما تداورس فى المدارس وقد سهى فيها أحيانا عن نسبته الى كاتبه سهواً لم ينتقص من ارتياحى الى انتشاره وهذا نص ذلك الوصف نثرا

محمد حافظ ابراهيم

يقول الشعر فى كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه، ومن عادته دخول حديقة الازبكية بعد الظهر طلباً لتلك الخلوة — ولا يختلط عليه الفكر خلال الضجيج المحيط به .

يتعب فى قرض قريضه، تعب النحات الماهر فى استخراج مثال جميل من حجره . يؤثر الجزالة على الرقة، وله فيها آيات .

يطرق الموضوع فى الغالب من جوهره، وربما نظم اكثر الابيات قبل المطلع شأن الصانع القدير الذى يبدأ بأصعب ما بين يديه، آمناً أن تهن عزيمته دون الاجادة بعد ذلك ؛ عالما أن الكلام لا بد أن يأتيه فى أى مقام طيعاً ولو بعد حين .

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب، ينسج على منوالها ويتخير نفائس مفرداتها، واعلاق حلاها .

اذا صاب البيت فى قالبه من العروض اعاده نغما على سمعه، مستشيراً بذلك ذوقه عن طريق اذنه، وطالما صدقته الاذن بنصيحتها . أما تغنيه فبدوى أخذه عن الشيخ عبد المحسن الكاظمى، وطريقته أن ينطق بالكلمات ملحنة تلحيناً ساذجا مع اطالة فى الحروف المعتلة، ورجفة فى القرار كرة أربعة انفاس وتقتضب .

له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى، وفى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظا على المجاد معنى . فاذا فاته الابتكار حيناً فى التصور لم يفته الابتكار فى التصوير .

أجلد الادباء على المطالعة . يقم اليه ديوان فيتصفحه كله، وحيثما ظفر بجيد استظهره

أولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء

كبير الآمال، عاثر الجد، يجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس أو مسحة من الشكوى ويحمل بعض حروفه من بثه ما يلذع لذع النار الكامنة فى غير متقد .

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الادب العربى فى مصر لهذا العصر، ولكل من تلك النجوم منزلته واضاءته وأثره الخالد .

أما شعره فشعر البيان، وان من البيان لسحراً .

أما الصورة الثانية فشعرية نظمتها لانشدها حافظا فى حفلة التكريم التى اقيمت له سنة ١٩١٢ على ما أذكر فى فندق الكونتينانتال وقد تبارى فيها صفوة ادباء الوقت يثنون عليه بما هو أهله وحافظ اذ ذاك فى ابان تجلى عبقريته ولاسيما من ناحية الديباجة العربية الاصلية المحكمة التى لم يعزها عن أقدم الشعر واجوده الا اختلاف الاغراض على كونه لم يمح فى تبيين تلك الاغراض الا النحو الذى اعتقد أن الفصاحة كما ترنى عليها وأولع بها تبقى سليمة من أيما تجديد مريب .

وهذا ما وصف به والداه وزمانه من ابيات تلك القصيدة

عليك سلام الله يازمنا بنى
نوابغه للضاد مجداً مخلدا
أيرجع صوت بعد الف ونيف
اليك ولا تلوى به حجب الردى
فتقرأ مهتزاً تحية عصرنا
وتسمع معتزاً صداك المردددا

* * *

لئن بت فى الغيب القصى محجبا
لقد عدت فى هذا الزمان مجددا
كأنك والاحقاب أمواج زاخر
تبسطن فيما امتد يدك من مدى
وقفت عليها مشرفا من يفاعها
وألقيت طيفا فى نهايتها بدا
تغيرت الاسماء والعصر لم يزل
كما كنت فى الاعصار فرداً موحدا
فكدنا نحال الدهر قابل حالة
ودابرها ثم استوى مترددا
ألست اذا آنست من دهدنا سنى
لحكمة شوق فات حكمة احمدا
ألست اذا شاقتك أبيات حافظ
حسبت أباك مالك اليوم منشدا
ألست اذا غناك صبرى مسائلا
اللبحترى الصوت رجعه الصدى
ألست اذا ناجتك روح ضريرنا
ذكرت ضريراً بالعرة وسددا

* * *

لقد بعث الله القريض وانشرت
له دولة العباس ملكا مؤيدا
ومن آيها تكريمنا اليوم حافظا
وتمجيدنا منه مريا ممجداً
فنى الادب الجدى الذى لا يشوبه
مزاح ولا يلقى ابتسام به مدى
مقوم تأويد الخلائق حيثما
تبين بين الناس خلقا مأودا
مجود صوغ القول لا ينثر الحلى
ولا ينظم العقيان الا مجردا
مفصل آيات البلاغة ان نهى
نهى عن ضلال أو دعا فالى هدى
نجيب المعالى تعرف الزهر فى الدجى
له حيثما سارت خيال مسهدا
أمير معانيه ولله دره
اذا ما سجا أو جاش أو ناح أو شدا
أيعروه حزن فاقرأ الوصف تلقه
سحابا رمى ظلا على الكون أبردا
أيرضى لنعمى نالها كفوء لها
فلا قول فى الاذهان أعذب موردا
أيطعن فى شين فانك واجد
دما وصريعا والسنان المسددا
أيرمم موصوفا فتلك صفاته
حقائق حلاها الخيال وخلدا

أما الصورة الثالثة لحافظ فهى شعرية ايضاً تتضمنها منظومة قدمته بها للجامعة الامريكية ببيروت . وكانت قد دعته عام ١٩٢٨ لانشاد رائعة من روائعه فى حفلها الادبية العمومية العامة . فاجتمع لسماعه صفوة العلماء والادباء والوجهاء من اهل لبنان وسورية . وكان ظهوره بين ذلك الملا والقاؤه وايعاؤه مما لا ينسى جلاله وجماله أحد من اشهاده ما دام حيا

وقد احاطت بصورة حافظ فى منظومتى هذه مداعبة الصديق لصديقه وهذه المداعبة قد ابقيتها هنا كما وردت فى الاصل عسى أن يكون بها شىء من تلطيف الشجن وملء سبيل الاستطراد أقول . قبل ان اختم هذا البيان الموجز كل الايجاز ان حافظاً لقى من الاكبار والاجلال فى رحلته الى الشام ولبنان ما وقع من نفسه موقعا لم يفتأ يذكره شاكراً ويتحدث به بين أصحابه الى ان لقى ربه ففجع فيه مصر كما فجع فيه تلك البلاد بل سائر الشرق العربى فى حواضره

وبواديه فجيعة صدق فيها الحزن حتى كان اصاب مصاب كل بيت فى عزيز من أهله

وهذه هى المنظومة المتضمنة تلك الصورة الثالثة .

نهاية الفخر لى فى هذه الكلم

تعريف حافظ ابراهيم بمن أمم

أقول من أمم اذ ليس فى بلد

بالشرق من يجهل اسم الشاعر العلم

ولم يطالع ويستظهر روائعه

مابين منتثر منها ومنتظم

فهل أزيد الاولى لم يعرفوه سوى

اداء رسم لذى التعريف ملتزم

هذا فتى الدهر زان النبل طلعته

وان يكن بجمال غير متسم

اذا تجلى لك الالهام مزدهرا

فى مقلتيه فلا تنظر الى الادم

وان تبينت منه هيكلا تعبا

بوقرة فهو فى آن « خفيف دم »

دع الهيولى وحى الروح فى رجل

من أشرف الخلق بالاخلاق والشيم

تملى فيه فما تدرى تفرده

أبالقوافى وان راعت ام الهمم

لاحت مناقبه الغراء ساطعة

للمبصرين سطوع الشهب فى الظلم

اجلالهموه وأولاكم تجلته

مجاهراً غير ضناك ولا برم

ولم يزل خير من صان الجوار ومن

رعى الخليق بان يرعى من الحرم

برحمة ان عين الشرق فاتحة

عن المعالى وعين الغرب لم تنم

ان ضام من جانب فيه سنى أمل

حيى الرجاء بدمع غير مكتتم

وان دعته الى ذود حميته

راع العداة بمثل الزأر فى الاجم

***

ماشم حافظ الاصورة مثلت

للنيل فاض بالوان من النعم

وليس الا صدى الاطيار ماثلة

جنات مصر بما يشجى من النغم

شعر كأن شعور القوم قدره

فلاح مظنونه فيه كمرتسم

تراه اصدق مرآة لامته

ان شف عن امل أو شف عن ألم

يلقيه لحنا بلا لحن فيطربها

ويبدع الوهم لايلتاث بالوهم

لوكنت شاهده أيام ينشده

وقد علا منبرا فى المشهد العمم

خلت مانشوة الخمر العتيق فلم

تكد تفرق بين الحلم واللمم

***

فان زحل جادته قريحته

باحسن القول من جزل ومنسجم

وطاوعته المعانى فهى فى يده

ملك يصرفه تصريف محتكم

تثر فنون الحلى فيه موزعة

بين المشاهد والآراء والحكم

زاه بافصح تعبير وأبلغه

سهل الاداء سليم اللفظ من سقم

***

لكن حافظ ابراهيم أنذركم

له جوانبه الاخرى من العظم

عوذت بالله من غرفى العيون أخا

يعدو الاناقة أحيانا الى النهم

عشنا دقيقى صبى فى مصر واشتهرت

دهراً وقائمنا فى كل مؤتدم

فالعقد من ثلث قرن غير منتثر

والسمط شيبه مماط غير منفصم

وقد رأى من بلائى فى ولائمها

بلاء حر جميل الظن بالكرم

الى البيوتات فى الاطراف مختلف

وللمحاشد فى الحارات مزدحم

يغشى مدبها استوثقت اطنابها

واستكملت أدب السادات والخدم

فاحنقته مبارانى ولا جرم

وليس فى حنق الموتور من جرم

فجاءكم وعلى ما فيه من رمقة

يبدى نواجذ رابى الضغن منتقم

فاطعموه ووافوا دين صاحبكم

ولا تزحموه فى يوم من التخم

وارخصوا قيم الطبى النفيس له

فرب غارم شىء جد مغتنم

اذنى احاديثه لو روجعت رجعت

اغلى النفائس بالاقدار والقيم

وكم له نكتة تسبى العقول اذا

جرى بها مرقم أو ردد بفم

***

يا اهل لبنان ان الضيف عندكم

هدية الله فيما قيل من قدم

اعزز به وهو من اهدى مصر الى

ابر جيرانها بالعهد والذمم

ما الالمعى الذى فيكم يمثلها

الا تمثل مجد النيل والهرم

اليس فيما زواه من مآثرها

اسنى مفاخرها ماخط بالقلم

دامت بقاياها دامت محاضرها

تعز موفورة الاجلال فى الامم

خليل مطران

حافظ ابراهيم

لحضرة صاحب العزة حفنى بك محمود

قد ينصرم الشهر الثانى منذ سكت صوت حافظ ابراهيم وثكل النيل شاعره، وأصيب الاصدقاء، بأعز الناس فقداً على الاصحاب والخلطاء .

وان كل من يعرف حافظ ابراهيم . وما كان يفيض به على أصدقائه وأصحابه من حلو الاحاديث ، وممتع القصص ، ولطيف النوادر ليتساءل عن مقدار الوحشة التى نزلت بالمجالس التى كان يرودها ، والمجتمعات التى كان يغشاها، وقد يأخذه العجب اذا ماعرف أنها الى اليوم ولما تستشعر الفراغ الذى خلفه حافظ ، أو تستوحش بفقده ! وانها لاكثر منك دهشة وهى تسجل هذا ليل هى لاتملك هذه الاجابة من غير أن تشعر فى قرارة نفسها بشىء من الخجل والاستحياء . وقد يذهل بعض أصحاب حافظ فيتهم نفسه بعقوق الصديق الذى طالما اطربه وغناه . ومرى عنه وواساه .

الحقيقة أن لاجحود ولا عقوق . فان كان ولا بد من استقصاء الحقيقة وتوجيه الاتهام فانا خصمنا فى هذا الا شخصية حافظ القوية تلك التى ملأت نفوسنا فى حياته وانطبعت بها بعد مماته .

ذلك هو السر فى أن حافظا قد مات . وكأنه لم يمت وارتحل عنا ، وكانه حاضرنا اعتاد الناس اذا ماتحدثوا عن الشخصيات ، أوجاء ذكرها ان تذهب أفكارهم الى المظاهر ومالها من روعة وبريق . لذلك قد يندهش الكثير اذا ماذكرنا شخصية حافظ . وأخذنا نتحدث عنها ؛ فكيف يمكن لهذا الرجل المتواضع . الذى غلبت عليه الفطرة والبساطة أن تحشره فى زمرة الشخصيات الغنية بمظاهرها ، المدلة بمقامها وعظمتها ؟

لسنا نحن الذى يحشرونه فى زمر تلك الشخصيات ، بل هى الطبيعة قد فعلت ذلك . ولم تكتف بأن دسته فى صفوف الشخصيات الممتازة بل قدمته عليها فسبقها وخلفها وراءه رغم رائع مظاهرها ، وأبهة مجاليها .

ففى نفس الوقت الذى كانت طباع الرجل وبساطته ، تستران شخصيته عن العيون وتلقيان عليها حجابا كثيفا . كانت فى الوقت نفسه تدفعان بها الى النفوس فتصيب منها أرفع محل واعز مكان

ان الشخصية التى نحن بصددها ليست من تلك الشخصيات التى تخطف بلفت النظر وتحريك الخواطر ، فليس لها فى تلك الناحية شغل ولا أثر . انما شغلها مع العقول والنفوس . تثير فيها الاعجاب . وتظفر منها بالحب والاكبار .

لشىء من احراف الطبع أم لمجرد حب الفخر — لست أدرى — نرى كثيراً من الشخصيات لا تظهر للناس على طبيعتها . فلابد لها من لباس تتجمل به لتزيد من اعجاب الناس بها واحترامها . فمنها من ترى فى الكبر والفطرسة خير ثوب يناسبها . ومنها من ترى فى الادعاء والتعاظم مئزراً يكسوها وقاراً . والكثرة ترى التصنع والتكلف خير برد ترتديه لتسحر به اعين الناس وتأخذ مكانها فى الجماعات . وهى فى كل هذا ناسية أن جميع هذه الثياب مهما أحكم وضعها . وجمل نسجها تبعدها عن القلوب . ولا تقربها الى الارواح والنفوس .

هذا هو السبب فى أن شخصية حافظ فى بساطتها وتواضعها . كانت من أحب الشخصيات الى الناس . تسكن اليها النفوس . وترتاح لها العقول والقلوب . فلا تكلف . ولا ادعاء . ولا كبر . ولا مخيلة . بل مورد عذب و غدير صاف .

فقد كان الرجل بمجرد التعرف به يفتح لك قلبه . ويصارحك افكاره . فتقرأ فيهما صحيفة أخلاقه وطباعه من غير حاجة الى أقل جهد أو أيسر عناء .

أنت أمام رجل يسخر من تكاليف الحياة . ويرى أن الناس قد تغالوا فى تقديرها الى حد يظنه هو جنونا . أما ما تواضعوا عليه من التكاليف والتقاليد فلم يكتف بتحرير نفسه من جانب كبير منها ؛ بل اتخذه موضع سخريته . وهزئه . وانك ليأخذك العجب اذا جمعك به مجلس من تلك المجالس التى شاع عنها فى الناس مواقف الجد . واشتهر رجالها بالتوقر وجلالة المحل . يأخذك العجب اذ ترى حافظا لا يتردد فى أن يرسل نكتة حضرته . تصيب من تصيب أيا كان خطره وهو بهذا فى حدود الذوق السليم بدليل أن الجميع من كانت له النكتة أو عليه سواء فى التفكه بها والعجب منها . كذلك هو لا يتردد فى أن يدعو هذا الباشا أو ذاك الوزير باسمه خلواً من الالقاب مجرداً من حروف الالقاب (من دولة ونازل) . وليس هذا مما يتقبله الناس — وخاصة أصحاب الالقاب — قبولا حسنا : ولكنه اذا جاء من حافظ صار سائغاً مقبولا . لماذا ؟

من رأى حافظا حين يسيح بافكاره . ويتغنى ببيت البارودى

حبوتك القاب العلا فاذهبى باسمى

فما تخفض الالقاب حراً ولا تسمى

من رآه وهو يتغنى بهذا البيت . أحس أن كل كلمة بل كل حرف يخرج من صميم قلبه، وأدرك أن أعمال الرجل كلها لاتصدر الا عن عقيدة . وعرف السر فى أن يتقبل الناس منه اطراح مألوف التقاليد . ذلك بأن شخصيته البعيدة عن كل تصنع . المبرأة من كل مايريب متغافلة فى جميع أفعاله يكسوها من التواضع مايتقبله الناس . ومن الجمال مايحبه الناس . ألا سلاما على تلك الشخصية التى سخرت من اطماع الحياة . وغالبتها فغلبتها بما فيها من شر وحسد وكيد وأذى .

والآن فلننتقل من شخصية حافظ الى شعره . وليس فى ذلك مايتعب ذهن القارىء أو يجهده لما بين شعره وشخصيته من صلة وثيقة ، ورابطة متينة . فالبساطة الفطرية التى بيناها فى خلقه ، تقابلها الصراحة البارزة فى شعره . وفى كثير من الاحايين مايكون قاسم

رحلة الحجاز

(مصورة)

فى مائتى صفحة

بقلم

ابراهيم عبد القادر المازنى

ثمن نسخة قروش صاغ غير أجرة البريد

في صراحته ، ولكن روح الاخلاص البارزة في شعره كفيلة بأن تسيغ صراحته وتجعلها شهية محببة

ان ابرز صفات حافظ ارهيم سواء في خلاله أم في شعره الصراحة . فلقد ملكت عليه جميع السبل حتى خرجت به عن الدائرة المرنة التي تجول فيها الكثرة الساحقة من الشعراء .

بين الشعراء والحسان رابطة قوية هي رابطة حب التأنيق والثناء . فبقدر ما تحرص الحسناء على أن تروق والعيون يحرص الشاعر على تمليق الجماهير لكسب ثنائهم . من أجل ذلك نهو جسد حريص على أن يمسك العصا من الوسط خشية أن تصطدم آراؤه بفريق دون آخر فيخسر ثناءه وعطفه .

قد يكون للشعراء في هذا بعض العذر . فهم يعلمون أن عواطف الناس وقلوبهم هو المحل الذي يصدرون اليه بضاعتهم ، فان هم أغضبوا تلك العواطف فقد كسدت سوقهم . وردت اليهم كل عروس حسناء ، مجرزاً شمطاء ، ورجعت اليهم الدرر النادرة . اصداءا بائرة . أدرك غالبية الشعراء ذلك فحرصوا على تمليق العواطف ، وأسرف كثير منهم في هذا الحرص لدرجة تلاشت معها آراؤهم ، وانجرح في سبيلها شممهم ووفاؤهم ، وهنا نرى سمة خلق حافظ الصريح ، قد غلب حافظ الشاعر . فخرج به من دائرة غلبها الملق والحرص ، ودفعه الى ميدان تسوده الرجولة والاباء ، فلعلك لا تجد في فهرس الشعراء شاعراً كان أصرح ولا أقسى في خطاب أمته ، وتوجيه فارس النقد اليها من حافظ مع أمته .

فهو حين غزته الوطنية اليابانية يفيض بها ، ويشيد بذكرها ، لا ينسى مصر ، ولا يتردد في ان يصيح بوطنيته :

اما لولا ان لي عازلا
من امتي مابت اشكو النوى
أمة قد فت في ساعدها
بغضها الاهل وحب الغربا
تشق الالقاب في غير العلا
وتفدي بالنفوس الرتبا

وكأنما كان بين حافظ وبين شباب مصر الناشيء في الترف والنعيم ، ثأر قديم ، فهو لا يخاطبه دون أن يغمز في خطابه . أنظر الى كيف دفع هذا الشباب الى الحماس الوطني عار على ابن النيل سباق الورى
مهما تقلب دهره أن يسبقا
فتدفقوا حججا وصونوا نيلكم
فلكم فاض عليكم وتدفقا

وفي هذه القصيدة تظهر شجاعة حافظ ووطنيته . فاذا ما عرفنا أن ذاك العهد كان عهدا تربص فيه الانجليز لزعماء الحزب الوطني وبعث فيه قانون المطبوعات فهو في اول فتوته وجبروته وتآمرت فيه القوى للمحاكمات ، وبثت العيون والارصاد في كل مكان ، وخفق الامن العام للفتك والاذى ، اذا عرفنا كل ذلك أدركنا مقدار شجاعة شاعرنا العظيم حين يبرز في هذا الجو ، غير هياب وينشد مواطنيه

ومن البلية أن تباع وتشترى
مصر وما فيها وأن لا تنقطعا

فاذا ما حرك شعورهم ، وثار عواطفهم ، أعاب بهم يدعوهم الى طريق الثورة ، ولم يكذبهم ما يكلفهم هذا الطريق من الثمن فهو يقول فيه

الموت في غضيانه وطروقه
والموت كل الموت ان لا يطرقا

وهكذا كان حافظ في فجر الحركة الوطنية رجلا شجاعا ، ووطنيا جريئا ، لا يرهب تهديداً ولا يثنيه وعيد . وكان على حد قوله

وعلمهم مصادمة العوادي
فمثلك لا يروعه الصدام

وقد وجد فيه الزعيم الشاب مصطفى كامل خير معوان على اثارة الشعور ضد الغاصبين . فكان قوة للزعيم الوطني في جهاده .

وقد كان حافظ في شعره الوطني حكيم التوفيق عظيم المهارة ، خبيراً بأوتار قيثارته ، عارفا لكل نغم مكانه ومناسبته

فلغة الشباب عنده فتية الروح . يحددها الحماس ، وتدفعها القوة :

مضى زمن التنويم يا نيل وانقضى
ففي مصر ايقاظ على مصر لسهر
وقد كان مرفين الدهاء مخدرا
فاصبح في اعصابنا يتخدر
اذا الله أحيا أمة لن يردها
الى الموت قهار ولا متجبر
رجال الغد المأمول ان بلادكم
تناشدكم بالله أن تتذكروا
فكونوا رجالا عاملين اعزة
وصونوا حمى أوطانكم تتحرروا
ويا طالبي الدستور لا تسكنوا ولا
تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله
ولا نال في العالمين مقتصر

أما لغته للشيوخ الذين تأخرت سروجهم عن صفوف المجاهدين فشاعرنا يرسلها اليهم تمشي الى قلوبهم بين صفي حكمة ووقار ، واليك شيئا مما قال عن شيوخ مجلس الشورى في ذاك الحين

شيوخ كلما همت بأمر
زأرتم دونه زأر الاسود
لحى بيضاء يوم الروع هانت
على حمر الملابس والخدود

لغة أخرى يعرف حافظ لها أثرها في النفس حين يصور أطماع الانجليز ومراميهم :

اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم
فلا تك مصريا ولا تك مسلما

كذلك كان حافظ صريحا في خطابه لمواطنيه ، شجاعا في نصرة بلاده ، جريئا على شباب قومه في الابانة عن عيوبهم ، لم يرتض لنفسه تملقهم ، وبالرغم من كل هذا فقد أحبته أمته ، وأعجب به الشباب ، كل ذلك لان الصراحة والاخلاص يمانان في كل بيت من شعره ، كما كانا يفيضان على شخصيته وخلقه والاخلاص والصراحة جلال تنحنى أمامه الشعوب ، وتحترمه الامم وتهابه الجماهير .

أرأيت كيف دفعت الوطنية بحافظ الى أخطر الميادين ، معرضا نفسه لغضب المحتلين في عنفوان سطوتهم وجبروتهم . فقد أبلى في حادثة دنشواي بلاء جنى ثمار انتصاره . فأشار الى ذلك في خطابه للسير غورست

فليت كرومرا قد دام فينا
يطرق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر آنا بعد آن
بمجلود ومقتول شهيد

لتنزع هذه الاكفان عنا
ونبعث في العوالم من جديد

وما كاد المستار يسدل على هذه المأساة حتى كان حافظ قد أرسل الى التاريخ بصحيفتين . احداهما سوداء قاتمة تلك صحيفة الظالمين ، والاخرى بيضاء ناصعة : تلك صحيفة شاهر النيل .

نظرة في شعر حافظ تنبئنا أنها لم تكن الوطنية وحدها التي دفعته الى ميدان تحف به المكاره ، وتحدق به الاخطار بل هناك خلة اخرى دفعت بالرجل الى طريق وعر ، ومركب صعب تلك هي الوفاء .

لقد شهرت الحرب على الشيخ عبده . وقاسم امين . أما الاول فقد اصطدمت آراؤه بآراء شيوخ الازهر — وللازهر وشيوخه في ذلك الوقت شأن وخطر — فاجمعوا أمرهم بينهم ، وأثاروا شعواء ، مسمومة سهامها ، غير عفيف سلاحها ، فاجرا شيطانها ، يستبيح كل غير مباح ، وينال بالباطل ما يحرم أن ينال فلما حمي وطيسها ، وضاق الحق بالباطل ذرعا ، تقدم حافظ الى الميدان ، حاسراً غير مقنع ، يدفع عن صديقه ، ويرضي حقوقا للمروءة والوفاء . نظر مقدار غضبه لصديقه وقصيدته التي يقول فيها

يا أمينا على الحقيقة والافناء
والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الامام في موطن الرأي
ونعم الامام في المحراب
ليت مصراً كغيرها تعرف الفضـ
ـل لذي الفضل من ذوي الالباب
انها لو درت مكانك في المجـ
ـد ومرماك في صدور الصعاب
وثنائيك في سبيل أبي حفص
ومسعاك عند دفع المصاب
لاظلتك بالقلوب من الشعـ
ـس ووارت عداك تحت التراب

وفي قصيدة أخرى يشير الى موقف صديقه من عدائه .

أمام الهدى اني أرى القوم أبدعوا
لهم بدعا عنها الشريعة تزغف
رأوا في قبور الميتين حياتهم
فقاموا الى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم
على صنم للجاهلية عكف
فاشرق على تلك النفوس لعلها
ترق اذا أشرقت فيها وتلطف
فأنت بهم كالشمس في البحر انما
ترد الاجاج الملح عذبا فيرشف

أما محرر المرأة الذي ثار عليه الرأي العام واجتمعت الاقلام على التشهير به والطعن فيه ، وتألبت عليه الجماهير ، وتخاذل الاصدقاء عن نصرته ، فقد رأى بجنبه الصديق الوفي . والشاعر العظيم ، لا يأبه بالجماهير الصاخبة ، ولا يكترث بالنفوس الثائرة ، بل هو يسخر منها ويعيرها بعجزها عن الفهم ، والنزول على حكم العقل والمنطق .

قاسم ان القوم ماتت قلوبهم
ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه
الى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم
فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه

فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم
لوضع قناع لاستقامت رقابهم
ولو خطرت في مصر حواء أمنا
يلوح محياها لنا ونراقبه
وفي يدها العذراء يسفر وجهها
تصافح منا من نرى ونخاطبه
وخلفها مومى وعيسى وأحمد
وجيش من الاملاك ماجت مواكبه
وقالوا لنسا رفع النقاب محلل
لقلنا نعم حق ولكن نجانبه
لا تظنن ان وفاءه قد رضي منه بهذا القدر من نصرة اصدقائه . فهو لم ينس أن يثأر لصديقه الشيخ عبده بعد مماته من اولئك الذين كدروا عليه صفو العيش ، وأقلقوه بالاتهام الباطل والدس الوضيع . واليك ما يقوله لهم في مرثيته الخالدة للشيخ عبده

تباركت هذا الدين دين محمد
أيترك في الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى
ولانت قناة الدين للغدران
مددنا الى (الاعلام) بعدك راحتا
فردت الى اعطافنا عدوان
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا
فعدن وآثرن العمى شرقات
وآذوك في ذات الاله وأنكروا
مكانك حتى سودوا الصفحات
لقد كنت فيهم كوكبا في غياهب
ومعرفة في أنفس نكرات

من خلال هذه السطور ندرك ما كان عليه حافظ من عقيدة سليمة ، وغيرة دينية ، ومن تأثير هذين العاملين كتب حافظ عمريته الخالدة ، فتبوأت من الشعر العربي مكانا فذا في نوعه ، فريداً في بابه .

وهكذا كانت حياة حافظ جهادا مستمرا في سبيل الدين والوطن والاخلاق فاختاره الله اليه حتى من عليه في الاولى بأم تندبه وتبكيه ، وشعر خالد للاجيال تنشده وترويه ، جزاه الله في الآخرة بخير ما يجزي به عباده المجاهدين .

حفني محمود

مراجم مصرية وغربية

تأليف

الدكتور محمد حسين هيكل بك

يطلب من ادارة هذه الجريدة
ومن المكاتب الشهيرة

يا حافظ !

الحجنا على صديقنا الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى أن يكتب كلمة عن حافظ وكان بينهما من الصداقة اكثر مما بين أخوين . وقد اعتذر مخافة أن يحول اضطراب نفسه دون أداء غرضه . لكنا أصررنا فأجاب رجاءنا، فكان هذا الوله الذي يحسه القارىء مصاغا فى عبارته القوية البليغة .

لم لا تجيب وقد دعوت مرارا؟

يكفى سكوتك أربعين نهاراً !

يا حافظ اهذه أربعون تقضت ونحن فى انتظارك اذ أنت لم تحسن بطلمة ولم تسعد برد خطاب!

أطاب لك المقام هناك بين من تقدموك من اخوانك ، فلم تعد تحفل بمن خلفت خلفهم صحبك وأصدقاؤك ؟ أم لذلك آثرت انتظارهم فى مثواك ليجتمع الشمل كله ، وانهم لموافوك عما قليل فما فى هذه الدنيا كثير!

يا حافظ ! هذه أربعون تقضت والوله عليك لا يخلق تليده ، ولا يبلى جديده ، وماذا ركك صاحبك ، وهيهات ألا يذكرك ، الا أحس على قلبه غمزا لا يسكن الا بالعبرة. وهكذا:

لم يخلق الدمع لامرىء عينا
الله أدرى بلوعة الحزن

وكذلك كان البكاء نقمة فأبى خطبك الا أن يجره من احدى الثلم !

هذه شيعة من قلبى قد انخلعت لموتك ، ولعلها دفنت معك ، وماهى الا تفعل؟ وقد كنت بعضى وكنت بعضك ، فاذا أنا بكيتك فانما (يبكى بعضى على بعضى معى) فاعجب لمن جمع بين الموت والحياة، ومن تقسمت الارض شطريه : هذا يدب على متنها، وهذا مدرج فى بطنها !

واذا كانت حياة المرء تاريخا وذكرى ، فخبرنى يا حافظ كيف أصنع بسبع وعشرين سنة هى زهرة الشباب ، وهى سرحة العمر ، ولقد أصبت فيها من المتاع بك مالا يعلم مداه الا الله تعالى . وها هى ذى لقد أضحت مبعث الامى والشجن ، ومثار اللوعة والحزن . وهكذا الدهر اذا تطول وأنعم ، أبى الا أن يحيل شهده الى صاب وعلقم!

يا حافظ ! أين أنت ؟ انى لأطلبك فى كل مكان فلا أصيبك وقد كنت ملء كل مكان ! هذه يدى أصبحت منك صفرا ، وهذه نفسى أضحت من أسباب العيش قفرا.

كأنى لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

يا حافظ ! أين أنت وكيف صنعت ؟ وأين ذلك الود الذى ظللنا نجمعه جمع الشحيح للمال مدى سبع وعشرين ؟ أتراه قد تبدد كله فى ضربة من الموت واحدة ؟

وكنا كندمانى جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فما تفارقنا كأنى (وحافظا)
لطول افتراق لم نبت ليلة معا !

لقد كنت تعتب على من صاروا الى الآخرة قبلك أن أحداً منهم لم يباد الاحياء بمثلهم وما بى ؛ وكيف يكون ذلك العيش ، فهلا فعلت أنت ؟ فما أشوقنا الى حديثك . أنت الذى ملأ الدنيا بيانا فى جميع أسباب الحياة ، فهل يسوغ عليك أن تحدثنا عن بعض أسباب الممات ؟

ها أنت ذا تدعى فلا تجيب ! وقد كنت الطلاع فى كل مهمة ، الندب عند كل دامة ، الشادى كلما تفتح لامل هذا البلد زهرة ، الناشج كلما كرثه أمره وتغير له دهره !

ليت شعرى ما الذى حبس لسانك ، وقد كان أجرى من السيل الدافق ، وما الذى أخمد بيانك، وكان أسطع من البرق الآلق؟ماهذا؟

ياليت ماء الفرات يخبرنا
أين ترلت بأهلها السفن؟

يا حافظ ! لقد سافرت قبل أن تتزود لهذا الذى يدعى بالموت ، وقبل أن أتزود لهذا الذى يدعى بالحياة بعدك . فهلا جلسنا معاً جلسة نتذاكر فيها العيش فى تيك الايام ؟ أتذكر اذ كان المرفون يقلبون أعطافهم فى ألوان المتاع أو ما اصطلح هذا الناس على أنه من المتاع . وأنا وأنت لا نغبط أحدا على عيشه، ولا ننفس على أحد ماوصله الله به من جاه ومال ! اذ نحن مريان حق مريين بما وزقنا كلانا من محبة وصدق وفاء ، أتتذر عليك ماشاء الله أتتذر فلا أرى عليك بزما ولا تماطلا لهذا الذى أصنع بشاعر النيل ، وتتطرف بى ماشاءت لك سطوة اللسان ان تتطرف ، فلا والله ما أحسست قط أن لعمة فى الدنيا تقوم بازاء هذا الذى أنا فيه! فماحاجتنا بعد هذا الى مايتكاثر به الناس من جاه ومن مال؟

أدريت يا حافظ كيف قد موتك متنى وكيف هد موتك ركنى ؟

كنت لى نعمة وكنت سماء
بك تحيا أرضى ويخضر عودى

يا حافظ ! أتذكر كيف أغفانا هذا العيش وكفانا ، وكيف كنا ندل به ونتفاه حتى ما يعجبنا عجب ، ولا يستهوينا من اسباب الحياة أرب ، فلو سألت اليوم ، فى سر من الموت، عن صاحبك ، أو عن بيتك التى مازالت منبتة فى سجل الاحياء ، لخرج لك الجواب فى قول مسلم بن الوليد :

أصبحت كالثوب الابيس قد اخلقت
جداته منه فعاد مذالا
وبقيت كالرجل المدله عقله
أشكو الزمان وأضرب الامثالا
سالمت عذالى فآبوا بالرضى
عنى وكنت أحارب العذالا
ولقد علمت بأنه مامن فتى
الا سيبدل بعد حال حالا

يا حافظ ! ان الرجل العظيم ليموت فيخلو بموته موضع واحد ، أما أنت فلقد أخليت موتك مواضع كثيرة : فأنت شاعر النيل غير مزاحم ، فقد اتصل شعرك بمائه ، وامتزج بواديه أرضه وسمائه ، وشدا فى نعمائه ومرائه ، وناح فى بأسائه وضرائه . وأنت الكاتب لا يلحق فى حسن الصياغة غباره ، ولكن ترسم اذا أعوز تجويد النسج آثاره ، وأنت الاديب التام ، تضرب فى فنون الادب كلها ما تقصد عنك شاردة ، ولا تندعنك منها مستأنفة ولا آبدة. وأنت المحاضر كأنما يخوض منك جلاسك فى عباب ، أو كأنما يقرؤن منك فى كل باب أسبغ كتاب . وأنت السمير ما تبرح تثيم فى مجلسك الطرب ، وما يبرح جلاسك يتنزوذ من اعجاب ومن عجب . وأنت الذكى الالمعى ، ويا له من ذكاء كان مثل سنا البرق ، يألق من جانب الغرب فيسطع فى عرض الشرق . وأنت وأنت وأنت يا حافظ ، لقد كنت معانى كثيرة ، وكنت مباهج من مباهج الحياة عديدة ، فقد رياأخى رحمك الله ، جملة مصائبنا فيك!

أنا هنا انما أبكى حافظا لا أنشر سيرته ولا أعد مناقبه ، فلذلك بعد مقام عريض .

***

وبعد فلقد تعذرت على رثاء حافظ طويلا ضنا بنفسى على اظهار الناس على مابى ، فدون اليوم من حيرة ووله واختلال أعصاب . ولكن لقد يعنى على هذا من أصدقائى لا أستعليم مدافعتهم ، ولا اظهار الخلاف لهم ، حفقت على قولة الشاعر :

ألا ياحمامى قصر زوران هجما
بقلبى الهوى لما تغنيتما ليلا
وأبكيتمانى وسط صحبى ولم اكن
أبالى دموع العين لو كنت خاليا

***

وبعد فلقد كنت يا حافظ كثير الترجيم لقول صديقك وأستاذنا اسماعيل باشا صبرى :

وحياة الفتى اغتراب فان ما
ت فقد عاد سالما للتراب

وها أنت ذا قد عدت الى الوطن ، فالحمد لله على السلامة ، والى الملتقى يا حافظ فى الجنة ان شاء الله ، فلقد كنت شديد الايمان بالله عظيم الاحسان الى الناس . والسلام عليك ورحمة الله

صديقك المعنى
عبد العزيز البشرى

***

فى المرآة

كان الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى قد كتب فى السياسة الاسبوعية فصلا رائعاً فى وصف حافظ وأدبه تحت عنوان « فى المرآة » ثم نشرها بعد ذلك مع اشباهها فى كتابه المشهور بهذا الاسم . وقد آثرنا أن ننقل هذه الصورة منه ونثبتها هنا .

« حافظ ابراهيم شاعر ، فهو يحب الجمال ويجتمع له ، ويكره القبح وينعى على أهله ، يجابه بذلك مجابهة لا يتقى فى القول ولا يتحرف ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة اذا كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك انك فى بستان تتطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله ، وأشرق نرجسه وتألق ورده ، فأذكرك طلعة الحب ، تانك عيناه وهذا خده ! وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجب لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت ! والبدر فى ملكه بين المجرة والجوزاء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء ، فلا تدرى أأمست السماء فى الروض ، أم أمسى الروض فى السماء ؟ .

ولم أر قط رجلا أمرع منه حفظاً ولا أثبت حافظة ، ولقد تقع له المقالة الطويلة أو القصيدة الضافية فترى نظره يثب فيها وثباً حتى يأتى على غايتها ، واذا هو قد استظهر أكثر جملها أو ابياتها ان كانت قصيداً ، واذا هى ثابتة على قلبه على تطاول السنين . كذلك لم أر قط رجلا اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام موسلا ومقفى مثل ما اجتمع لحافظ. ابراهيم ، فكان حقا له من اسمه أوفر نصيب ، واذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرق وهوى ، فلك أن تحاضرك حافظ فى الادب ، تصب على سمعك عصارة الشعر العربى وأبدع ما انتضحت به القرائح من عهد امرىء القيس الى الآن ، ويمكنك أن تعد بحق حافظاً أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربى عرف الى اليوم ، وليتهم ؛ اذ يشرف على السن بدل احالاته على النعاس ، يحيلونه على أحد (دواليب) القسم الادبى فى دار الكتب ، اذن لعصموا عليها ذخيرة هيهات أن تعوض على وجه الزمان.

واذا أردت أن تتعرف لون شعره والى أى واد من أودية الكلام ينتسب ، فارجع الى أكثر ما يهتف به ويردده من شعر من قبله من الشعراء ، وأنه فى هذا الباب ليؤمن قبل كل شىء بالصنعة والدرية ونسج الكلام ، وما بعد هذا عنده ففضل ، وهو يرى ، ولقد يرى معه كثير ، ان جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق بدقائق المعانى وان تواليت من دونها الالفاظ وان أدق المعانى وأجلها لقد تقم للدهماء فى حوارهم ومنازع كلامهم ، أما اشراق الديباجة ونصاحة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر ، أليس يبهرك ويروعك ويشيم فيك كل الطرب قول البحترى مثلا :

ذاك وادى الاراك فاحبس قليلا
مقصراً فى ملامة أو معللا
لم يكن يومنا طويلا بنعما
ن ولكن كان البكاء طويلا

وقوله :

ووقفة بالعقيق نطرح ثقلا
من دموع بوقفة فى العقيق

وقول الشاعر :

يا ليت ماء الفرات يخبرنا
أين تولت بأهلها السفن

وقول الشاعر العربى :

فسائل بنى جرم اذا ما لقيتهم
وسعداً اذا حجت عليك بنوسعد
فان يخبروك الحق عنى تجدهم
يقولون أبلى صاحب الفرس الوردو

وغير هذا من رائع الشعر مالا يقتضيه الحصر :

وبعد ، فأى معنى فى مثل هذا يرتفع على ما تبتذل به العامة فى أحاديثهم وأسمارهم وفنون مناقلاتهم . انما خطره كله فى لطف الصياغة وشدة القول وقوة الاسلوب ، ولو قد ذهبت تؤدى بلغة أخرى نظم البحترى وابو تمام واضرابهما من أعيان الشعراء ما خرجت من ذلك بطحيل ؛ بل لو انك تعمدت أبلغ ما قالوا فنقضت غزله ونثرت نظمه ماعدا أن يكون كلاماً من أوسط ما اعتاده الناس من الكلام!

هذا رأى حافظ فى الشعر ، وتلك أيضا صورة من شعره ! مشرق الديباجة ، جزل اللفظ صافى القول ، محكم النسج ، رصين القافية ، ترى معناه فى ظاهر لفظه ، فاذا أقبل عليك ينشدك من شعره أبصرت البيت يستشرف وحده للقافية استشرافا حتى لتقبض عليها بذهنك قبل أن ينطق بها حافظ ابراهيم .

وحافظ ، كما أسلفت عليك مؤمن كل الايمان بالصنعة ، ولقد يسنح له المعنى الدقيق فيحاول أن يشكه بالقريض ، فان اصابه فى غير ضاق ولا اعنات للفظ أو اخلال بقوة النظم والا صرف لغيره وجه القريض ، ولربما أصاب المعنى الرفيع فيسره للنظم تيسيراً حتى يخيل لك ، اذ تتلوه . انك فى كلام من جنس سائر الكلام!

وهو ، كما حدثتك ، حاضر البديهة رائع « النكتة » يتعلق فيها بادق المعانى فى جميع فنون القول ، فلا يحتويه مجلس الا رأيته يتنزى تنزيا من ضحك ومن طرب ومن عجاب . وهو كذلك شديد الفطنة حلو الملاحظة لا يكاد يعرض لسمعه أو لبصره شىء الا وجه عليه رأيا طريفاً يصوغه فى « نكتة » عجيبة قد تستقر على سطوح الاشياء . وأحيانا تتغافل الى الصميم حتى يتكشف الايام منها لاعن طرفة متطرف ولكن عن رأى حكيم ! وهو لا يتحامى فى تطرفه ولا يتحرج ، فتراه يقتحم عليك بتندره كل مداخلك ، انى سنحت له اقتحاماً فيصيب من خلقك ومن ثيابك ومن اثاث بيتك ومن طعامك على انه فى كل هذا مرضيك ومؤنسك وباسط أسارير وجهك ان لم يفرج بالضحك من ثنايك ؛ وأما اذا كنت رجلا ضيق العطن متزمت النفس فلا خير لك فى مجلس حافظ ابراهيم .

وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قعطا مما أصابت يده من الاموال لكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه مافتىء طوال أيامه يشكو البؤس حتى اذا طالت يده الالاف جن جنونه أو ينفقها فى يوم ان استطاع . فاذا استغلقت عليه أحيانا وجوه السبيل لائتلاف الاموال عد هذا أيضا من معاكسة الاقدار

ولعل هذا من أنه نضحت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) وقال فيه مالم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ويتفقده تفقداً ايثاراً لتجويد الصنعة والتبريز فى صياغة الكلام . وتلك دعوة كانت المرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظا يحققها بيده اذا قصرت فى تحقيقها الايام . وانه لفنان Artiste حقاً ان فيه لكل أخلاق الفنانين : توله بالشعر من جميع أقطاره ، يسامحك وتراخى بالصفح عنك ، اما أن تتولى فنه وتسلك بالطعن صنعته فذلك الكسر الذى لا يجبر ، وذلك الذنب الذى لا يغفر ؛ وذلك مثار الدمع ما يزال هامياً ، وذلك متنزى الجرح ما يفتأ على الزمان داميا .

والعجب أن حافظا نفسه ضيق العطن قليل الصبر سريع الغضب وياويل الارض منه والسماء اذا تعجل أمراً فالبث دونه دقيقة واحدة اذن لطاح هياج الصبى فما يجدى فيه التصبير ولا التعليل وما يدع غضبته وما أحلاها ساعة بهم بركوب مركبة فى الطريق فيرى الخيل قد خلعت عنها أرسانها ، وهناك تسمع منه وهو يكاد يتميز من الغيظ ، أبدع النكات وأدقها وقد عجلت اليه الشيخوخة قبل السن ، وضربته اعراض السبعين اذ هو لم يذرف كثيراً على الخمسين فقاض من أنسه غير قليل وشغل بالمرض أو بتوهم المرض ، فما يلقاك الا ابثك علة طارئة وطالعك بشكاة جديدة وتتقيم أوهامه مراجعة الاطباء والمتطببين ، وترديد النظر فى كتب الصحة والاقرباذين ، فما سمع بعلة الا أحس أعراضها ولا وقع على عقار من العقاقير الا اتخذه وتداوى به

ومن أطرف نوادره ان صديقا له لقيه مرة فى الطريق وهو منقبض النفس متربد الوجه فسأله ما به ، فقال له : (ان المصران الاعور عندى ملتهب) فقال له صاحبه : وبماذا تشعر ؟ فقال : اشعر بوجع شديد هاهنا ، واشار بيده الى جنبه الايسر فقال له : (ان المصران الاعور) انما يكون فى الجنب الايمن لا الايسر ! فأجابه حافظ من فوره : (يمكن اكون انا يا سيدى اعور شمال) !!!

* * *

ولا أحسب شاعرا يجيد الانشاد كما يجيده حافظ وان له لصوتا جهيراً ضخما رائع المقاطع فاذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزاً ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات

ولا ننسى لحافظ يداً جليلة على اللغة العربية بما نظم وما نثر انشاء وترجمة فلقد طالما استخرج من مجاهلها صيغا طريفة بليغة أدت كثيراً من الاسباب الدائرة بين الناس مما تتحرك معانيه فى الانفس ويعيى اداؤه على الاقلام

وحافظ ابراهيم ، ولا شك من مفاخر هذا العصر ومن مباهجه معا . أسأل الله ان يبسط فى عمره وان يرزقه العافية على ان يقتنع هو انه فى عافية !

وبعد ، فاذا كنت يا صديقى قد وترتك ببعض حقك ولم اعرض جميع مزاياك فلكيلا اجعل لاحد سبيلا الى اتهامى واذا ظن بى شانىء انى لم أتسقط كل هناتك ، وان كانت لك هنات أخرى فما كان الود ليربى الا الخير فى أصدقائى على أننى أعتذر اليك فى الاولى ، واعتذر الى القراء فى الثانية ، واستغفر الله فى الحالين ؛ وأسأله تعالى أن يصرف عنى محنة الكتابة ويتوب على من فن الكلام .

حافظ الرجل

ليس هذا مقالا عن حافظ الشاعر ، فانما هذا « كتاباً » سيصدر فى أوانه ويشترك فى وضعه الادباء كلهم أو جلهم ، ولكنا هذا مقال عن حافظ « الرجل » أو هو طائفة من الذكريات تخطر الآن بالبال

كانت قهوتا « جراسمو » و « متاتيا » مثابة الادباء ومنتداهم ، وكان المرء لا يعدم منهم واحداً فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ، فهذا يدخن النرجيلة فى صمت ولعله يستعين بها على النظم أو التفكير ، وذاك يلعب الشطرنج ويزجى به الفراغ ويقتل الوقت ، وثالث فى حفل من الادباء أو الشعراء أو الاصدقاء ، يتظارحون الشعر أو يتناشدونه أو يتبادلون النكات أو يفعلون غير ذلك مما يجرى فى المجالس العامة بين الظراء أو الاخوان ، وقد عرفت حافظا أول ما عرفته فى قهوة جراسمو ، ولا أذكر كيف كان ذلك ولا من الذى قدمنى اليه وعرفنى به ؛ ولكنى أذكر أنى رأيته مرة هناك وكانت أمامه رنجيلة ، ولم أره قط يلعب الطاولة أو الشطرنج أو غيرها ، فلعله كان لا يجيد ذلك أو لا يرتاح اليه أو لا يصبر عليه ، وكان فى حفل واسع الحلقة والكل منصت اليه ، فقد كان بارع الحديث مرىء النكاهة وكان يستولى على المجلس ولا يكاد يدع لغيره كلاما ، واذا بالمرحوم امام العبد — أحد شعراء ذلك العهد وزجاليه — يقبل عليه اقبالا فيه من اللهفة أكثر مما فيه من الشوق ، ثم انحنى على حافظ وأسر اليه كلاما فقام هذا اليه ، وعينى تراعيهما ، ومال به عن الجمع ثم دس يده فى جيبه وأخرج حافظة كبيرة دفعها اليه فى صمت وتركه وعاد الى مجلسه .

لم يمض امام بالحافظة ، بل فتحها ووقف هنيهة يرنو الى وهج الجنيهات الذهبية المرشوقة فى عيونها ، ثم راح يأخذ جنيهاً فآخر ويتردد ويتلفت ثم يرتد الى الحافظة فيخرج بضعة جنيهات أخرى حتى اكتفى فطواها ورجع الى حافظ فألقى اليه حافظته ومضى عنه أما حافظ فتركها لحظة على سماعه كأنه لا يحسها ثم أعادها الى جيبه من غير أن ينظر اليها أو يفتحها ليرى كم بقى فيها ، اذا كان قد بقى شىء

ولم يكن حافظ على هذا غنيا ؛ ولا متصل حبل الرزق ، فما كان له عمل الا قرض الشعر ، ولم يكن يتكسب به ، وانما كان يمدح من يمدح لأنهم أصدقاؤه ولأنه كان يرى من حقهم عليه ومن واجبه لهم أن يثنى عليهم ، ولهذا ترى المدح فى شعره قليلا وقلما يتجاوز البيت أو البيتين يردان فى القصيدة لسبب معروف وعلة مفهومة ؛ ومناسبة ظاهرة لا تكلف فيها ولا استكراه للشعر عليها ؛ وكان رثاؤه وفاء أو اكباراً أو قضاء لحق يعتقده عليه ؛ ومن هنا كان الرثاء فى شعره من خير مافظه ، وفيما عدا ذلك كان شعره فى الاجتماع والاحوال السياسية ، ومن ذلك لم يكن شعره الشعر الذى يمكن التكسب به ؛ وقد صار قدوة لمن نشأوا على عهده من شعراء عصره فكانوا يقلدونه ويحاكونه ويجرون على أسلوبه ولكن هيهات ، فما كان يلحقه أحد فى هذا الباب . ومع أنه كان مقلاً فى الرزق عف النفس يعيش من دخل كتبه ودواوينه على الاكثر فقد كان جواداً لا يضن بدرهمه كله ، وقد حدثنى هو قبيل وفاته وبعيد اعتلاله الى المعاش ، انه كان مرة فى بيته فدخل عليه الخادم بظرف فضه فاذا فيه قصيدة جيدة يستوكف بها ناظمها يره ، ويستمطر جوده ، قال فاعجبت بالقصيدة واستحييت أن أرد قائلها خائبا بوأكبرت أن أدعوه وأخجله بالعطاء ، فعددت الابيات فوجدتها عشراً ، فوضعت له عشرة جنيهات فى ظرف بعثت به اليه .

قال ومضى نحو عام نزوت المرحوم اسماعيل صبرى باشا الشاعر فتذاكرنا الشعر وجر ذلك الى ذكر أجواد الامراء من العرب وصلاتهم للشعراء فتذكرت القصيدة وصلتى لصاحبها وأسفى على أنى لم أعرف قائلها الى الان ؛ فضحك اسماعيل صبرى وقال أنا أعرفك به ، قلت على تعرفه ؟ قال نعم ؛ واسمع أبياته فانى أحفظها ، ثم أنشدنيها فعجبت ؛ وعرفت بعد ذلك أن اسماعيل صبرى أراد أن يركبنى بالدعابة فكتب الابيات وبعث بها رسولا الى عاد اليه بالجنيهات العشرة ، ورزى لى صديق لى وحافظ أنه طلب منه مرة جنيها ، ولم يكن الصديق فقيراً ؛ ولا كانت به حاجة الى الجنيه ، وانما أراد أن يمازحه ويثبت لاخوانه أن حافظا لا يذكر ابداً دينا له ، ثم مضى يوم فطلب منه نصف جنيه ، وسأله ذلك الآن عندى ؟ فقال حافظ بلا تردد « خمسون قرشا فلا تنسها » فضحك الحاضرون ، وكانوا يذكرون الجنيه السابق !

ولعل حافظاً كان الشاعر الوحيد من شعراء عصره ، الذى لم يحقد على المذهب الجديد فى الادب ولم يحاول قط أن يتناوله بدرابة أو التنقص أو يكيد أو يدس له ، بل انه كان يعالج أن يفهم هذا المذهب لينصفه ، وكان اذا شرحت له نظرية يعترف بصدقها وسدادها ويراها غير منافية للصدق الذى فى سريرته والاخلاص الذى بنى عليه طبعه ، فيقول أنا اذن من المذهب الجديد

وأذكر أنى مرة زرته فى دار الكتب وكنت مشغولا بابن الرومى فجرى ذكر قصيدة طويلة له فى وليد فعجب حافظ رحمه الله لقدرة ابن الرومى على نظم ثلاثمائة بيت فى وليد ليس فى حياته شىء لانها لم تبدأ الا منذ أيام ، وقال انه هو لا يستطيع أن يقول أكثر من ثلاثين أو أربعين بيتا فى رجل تام الحياة مكتمل الرجولة ؛ فقلت له ان هذا هو الواجب أن يكون ، لان الرجل الكبير الذى تمت حياته واكتملت رجولته ، يكون قد أصبح محدوداً بحدود هذه الحياة وبسيرته فيها فليس يسع الشاعر أن يخرج عن هذه الحدود التى رسمتها سيرة الرجل وحوادث حياته ، واذا تجاوزها بجهد فلن يكون ذلك الا [illegible] ولكن

ملاحظات بسيطة عن حافظ وشعره

للاستاذ المحقق الشيخ علي عبد الرازق

سوف يتناول نقاد الشعر حافظا وشعره ليقولوا أين تكون منزلة حافظ بين الشعراء وأين يكون ديوانه بين دواوين الشعر، ولسوف يختلفون في ذلك من بعد أن مات حافظ كما اختلفوا فيه أيام حياته وكما تختلف نقاد الشعر دائما في كل شاعر وفي كل ديوان

ومهما يكن الرأي في حافظ وشعره فاني أريد أن أسجل هنا بعض ملاحظات أحسبها لا تقبل ريبا ولا خلافا. فلقد عرفتها عن مشاهدة واختبار، ثم هي ليست بملاحظات غريبة ولا دقيقة بل مألوفة واضحة يأظن كل من عرف حافظا قد لاحظها مثلي. ولعل بعض هذه الملاحظات على بساطتها قد تكون جديرة بالاعتبار اذا أريد أن يدرس حافظ وشعره

كان حافظ كما عرف الناس من أمره ثائر الطبع لا يستوحش ولا يرى في العزلة لذة ولا رضا — وليس ذلك غريبا فان الشعراء في الاغلب الاعم من أحوالهم هم أنس الناس طبيعة وآلفهم نفسا وأحبهم للاجتماع ولكن الذي يميز حافظا في هذا الشأن أن طبيعة الانس والالفة فيه لم تكن تنزع به كما تنزع طبائع كثير من الشعراء بأريحية الى الانس المادي ولا الى شهوات الحواس ولا الى السخيف الدون من مجالس العاطلين والبطالين، وانما كانت تنزع به الى الادب والشعر والى مافي الادب والشعر من جمال، والى مافي الجمال من أدب وشعر

نعم كان حافظ قد يغشى المجالس فيها الطعام والشراب، والمجالس فيها اللهو واللعب ولكن طبيعة حافظ الادبية الشاعرة كانت أقوى طبائعه واغلبها وكان جانب انسه بالادب والشعر يغطي جوانب انسه الاخرى، فلم يكن حافظ في اي مجلس استقر الا أديبا، ولم يكن أنسه وان تعددت صوره واختلفت مظاهره الا انس الشعر والادب

سمعت انه استأجر ذات مرة بيتا في معادي الخبيري حيث مساكن الارستوقراطيين من مصريين وأجانب وحيث لا يرتفع للباعة صوت ولا يزدحم بالسائرين طريق ولا تجتمع السابلة في قهوة ولا خان ولا يزور جار جارا ولا صديق صديقا الا على قدر وبعد استئذان وفي ساعات محدودة. وذلك نمط من الحياة لا يخلو من أنواع محبوبة من اللذة الارستقراطية التي تناسبه والانس الذي يقدره حق قدره مريدوه وغوانه، ولو شاء حافظ لاتخذ له سببا موصولا بين أسباب تلك اللذائذ الراقية ومقاما كريما في تلك المجالس اللاهية الانيسة، ولو شاء لاستساغها ووجد فيها متاعا وفائدة. ولكن حافظا أنكرها اذ كانت غير متلائمة مع طبيعته النزاعة الى الادب ولا كانت تشاكل مايهوى من فنون الانس الادبي والشعر فلم يطق صبرا وخرج من معادي الخبيري مخرج بشار بن برد اذ يقول

اذا انكرتني بلدة او نكرتها
خرجت مع البازي على سواد

لعل حافظا قد تفرد فيمن نعرف من الادباء بهذه الطبيعة الادبية الفنية اوربما كان في بعض المتأدبين فيما من يحاكيه فيها نوعا من المحاكاة ولكن أحدا لم يبلغه مابلغه حافظ من خلوص طبيعته ومن قوتها، ولقد كنت تجد آثار هذه الطبيعة الخالصة القوية اذا كان حافظ في مجلس من مجالس الجد أو في مقام الروع والخطر كما كنت تراها في مجالس اللهو والطعام والشراب، فأينما كان حافظ وعلى أي حال صادفته لا تسمع الا حديث الادب والشعر وما يتصل بالأدب والشعر من نكتة خفيفة ومثل صائب وشعر مختار وقصة مستطرفه

ولا نكاد نعرف أن أحدا من البشر استطاع أن يغلب حافظا على طبيعة الادب والشعر فيه ولا حادثا من الحوادث ولا شأنا من الشئون ولا لونا من ألوان الانس واللذة أذهله عنها، بل كان أدب حافظ غلابا سواء كان حافظ في مواطن الهزل أم الجد وفي حضرة السوقة أم الاشراف وفي مجالس الادب أم العلم، ذلك بأن الادب كما قلنا تلك طبيعة في حافظ قوية وسجية غير محدثة

وكان حافظ كما يعرف الناس من أكثر أدبائنا تضلعا من أدب العرب وأرواهم للجيد المختار من الشعر العربي، وأوشك أن أقول أنه في الحق أكثرهم وأرواهم وأعمقهم فيه درسا وتحليلا وأوسعهم فيه اطلاعا وأبصرهم بعوالمهم بأسراره فتلك ميزة أخرى اختص بها حافظ أيضا.

تلك كما ترى طبيعة فطرت خالصة على الادب والشعر ثم نمت واستحكمت بين دواوين الادب العربي والشعر وفي رياضهما

ومن الملاحظ المعروف عن حافظ أيضا أنه كان ينشد شعره فيفيض عليه من انشاده روعة ويزيده جمالا ولقد كان في انشاده مايستخف السامعين ويخلب ألبابهم حتى لقد كنت تسمع الشعر ينشده حافظ ثم تقرأه بعد ذلك فلا يهرك منه في الثانية مثل مايهرك في الاولى وليس ذلك شأن كثير من الشعراء غير حافظ

ومرجع الامر في ذلك الى ماحدثناك به قبلا من أن حافظا رجل ذو طبع شاعر أديب فهو اذ يقول الشعر يقوله عن طبيعة غير متكلفة، وهو اذ ينشد الشعر ينشده احساسا غير متكلف وفطرة غير مصنوعة ويرسله نغما صادقا كأنات المريض وآهات المحزون ونسمات المبتهج الراضي.

ولاحظت أيضا حين كنت في رحلة ببلاد المغرب ان أروج شعرائنا عند المغاربة وأعلاهم صوتا وأفهمهم ذكرا هو حافظ ابراهيم وان لحافظ من حيث يدري أو لا يدري مدرسة هنالك من الادب والشعر تتأثره وتحتذي طريقته. وكانت تلك ملاحظة غريبة عندي. فلعل في شعر ائنا غير حافظ ابراهيم من كان جديرا بتلك المنزلة؛ ولكن حافظ قد أدرك بشعره السليم المطبوع، وأدبه الخالص الفطري عجز عنه كبار الشعراء.

تلك الفطرة الصافية التي خلقت من جوهر الادب والشعر، وتلك الطبيعة النقية التي عماها الادب العربي وصورها في أحسن تقويم، وتلك النفس الحساسة القوية الشاعرة هي كل ماتجمع حافظ من أسباب الشعر وهي التي يقتدي شعر حافظ منها وينتهي اليها.

وبقيت ملاحظة أخرى تتصل بذلك أيضا

كان حافظ فيما نعرف أول شاعر في مصر استطاع أن يصرف الشعر في مناحي السياسة وفي معاني الوطنية وذلك أن حافظا ولد في أوساط الامة المصرية، ونشأ في أوساط الامة المصرية فتقلبت عليه أحوال السياسة كما تقلبت على الامة، بؤسا ونعيما، وعسرا ويسرا، وذاق ألوان الحكم ظلما وعدلا، وشدة ولينا. وما كان للاديب الشاعر بفطرته واحساسه مثل حافظ أن تمر به شؤون السياسة وحوادثها في مصر والشرق دون أن ترج عواطفه وان تثير مواطن الشعر منه. ولعلنا لا نخطيء الظن اذا قلنا ان تلك الاناشيد الوطنية التي كان يرجعها حافظ منبعثة عن ايمان صادق بحق الوطن وبحق الامة وعن احساس غير مكذوب بحاجة المصريين والشرقيين الى الحياة، والحرية هي التي رفعت مقام حافظ عاليا في بلاد مصر وبلاد الشرق حيث يحب الناس ان يسمعوا أناشيد الحياة والحرية والاستقلال

أما بعد — فان يكن حافظ وشعره في الطبقة الاولى بين الشعراء أو دون ذلك فما لا مجال للشك فيه ان حافظا هو وحده في جيلنا الحاضر الشاعر العربي الخالص المطبوع وان خير شعره هو ما كان يفيض عن طبيعته الحساسة القوية الصادقة حين ينظر الى صديقه وحبيبه المرحوم الشيخ محمد عبده نظرة حب صادق ليس فيه رياء فيهنيه بمركز الافتاء وينشده:

تبسم المصطفى في قبره جذلا
لما سموت اليها وهي معطال
رأيت فيها بساطا جل فاسجه
عليه فاروق هذا العصر يختال
بمشية بين صفي حكمة وتقى
يحبها الله لا تيه ولا خال

وحين تملك العاطفة الصادقة القوية يفجعها الامي الصادق بوفاة ذلك الصديق الحبيب فيترنم

لقد كنت اخشى عادي الدهر قبله
فاصبحت أخشى أن تطول حياتي
فوا أسفا والقبر بيني وبينه
على نظرة من تلكم النظرات

وحين تملك العاطفة الصادقة القوية مغضبة ثائرة تهيج حفيظة وغضبا فينشد:

وكم ذا بمصر من المحجبات
كما قال فيها أبو الطيب
فصحف تطن طنين الذباب
وأخرى تشن على الاقرب
وشعب يصيح مع الصائحين
على غير قصد ولا مأرب
فيا أمة ضاق عن وصفها
جنان الفصوه واللاخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا
ويصطلي البريء مع المذنب

تلك ملاحظات بسيطة أردت ان أخدم بها الحقيقة في حافظ وشعره وفاء لبعض حقوق الاخاء، ولعلها تكون نافعة لمن يريد أن يتولى يوما من الايام حفظ حافظ وشعره بالنقد العادل

علي عبد الرازق

ابراهيم الكاتب

بقلم

ابراهيم عبد القادر المازني

في بعثة صفحة

الثمن عشرة قروش غير أجرة البريد

يطلب من المؤلف بجريدة السياسة

ومن دار الترقي بشارع الساعة

وللمكتبة التجارية

حافظ ابراهيم

أول شاعر للنهضة الاجتماعية - صلاته الوثيقة ببلاد الشام

بقلم الاستاذ سامي الكيالي

وافق حافظ ابراهيم نهضتنا الاجتماعية في جميع تطوراتها فكان صوته يرتفع في كل قضية بدون لجاجة ولا خفوت حتى ليلامس هذا الصوت كل قلب في اقصى بلاد الشرق العربي. واذا كانت قضية المرأة - أو بتعبير اوضح - قضية «سفور المرأة» هي أولى المشاكل الاجتماعية التي واجهتها النهضة حين ارتفع صوت قاسم امين بتحريرها من ظلمات التقاليد ونزع الحجاب ليس عن وجهها فحسب بل عن فكرها وحسها وشعورها لتواجه الحياة الباسمة الطلقة وتكون دائما الى جانب الرجل - العضو المنتج الذي يستطيع بتعاونه مع الرجل أن يقيل المجتمع مما يرتطم به ويشكوه. نعم، اذا كانت هذه القضية هي أولى قضايانا الاجتماعية التي كانت ولا تزال الاساس الوطيد الذي يرتكز عليها نهوض الشرق وتحرره مما هو فيه من اسار وذل وعبودية فقد كان حافظ أجرأ وأول شاعر عربي معاصر ارتفع صوته العالي في التدليل على قيمة مايدعو اليه قاسم امين الذي حورب ابان دعوته من ظلمة الرجعيين اعنف محاربة حتى كاد صوته بل كادت دعوته تتحطم على صخور ادمغتهم المتحجرة لولا هذه الفئة المجددة المصلحة التي كانت تقدر مدى مايرمي اليه قاسم امين؛ وكان في طليعة هذا النفر شاعرنا الاجتماعي الكبير الذي خاطب محرر المرأة - رحمهما الله - بقصيدة فيها تصوير بديع لهذا الركود الذي يجثم بقوة في صميم الرجعيين فقال:

قاسم أن القوم ماتت قلوبهم
ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه

الى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم
فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه؟

فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم
لوضم نقاب لاستقامت رغائبه

وما أجمل هذا التصوير الذي رسم فيه ضلالهم الأقم وجهلهم المطبق فقال في ختام قصيدته هذه.

ولو خطرت في مصر حواء أمنا
يلوح محياها لنا ونراقبه

وفي يدها العذراء يسفر وجهها
تصافح منا من ترى وتخاطبه

وخلفهما موسى وعيسى وأحمد
وجيش من الاملاك ماجت كواكبه

وقالوا لنا رفع النقاب محال
لقلنا نعم حق ولكن نجانبه!!

وظل حافظ في كل مناسبة يعرض الرجعيين وينعى عليهم هذا الجهل المطبق والركود الآسن وقد كان يحتاط أحيانا في دعوته فيبذو هذا الاحتياط غير واضح وضوح دعوته الى الحق والجمال؛ والى نزع هذه الحجب الكثيفة التي تخيم على الادمغة والقلوب. واذا كان الشعراء قبل ثلاثين عاما أي حين بدء النهضة الفكرية لم يجرأ أحدهم أن يعرض الى هذه العوامل الاجتماعية التي بدأت تواجه الشرق في نهضته الاولى؛ وكان شعرهم مقصوراً على الغزل الكاذب والرثاء المخضرم بين الحقيقة والخيال والمدح الذي يذكرنا بالشعراء المتسولين والفخر الذي يقوم على ركام من الرياء والنفاق فقد كان حافظ ابراهيم أول شاعر مصري، ونستطيع أن نقول أنه أول شاعر عربي في هذا العصر ساير النهضة بعقيدة وايمان وظل في سيره حتى أن طوقه الاقدار منذ أربعين يوماً - الشاعر الصادق الحس في تصوير النزعات القومية والاتجاهات الاجتماعية والاحداث السياسية وكان يسير دائما في حمى الامة وفي كنف الوطن ينصر قضيته ويدلل على جوانب الحق في هذه القضية ويغمز هذه الاساليب الاستعمارية غمزات قوية ولمزات صارخة - كل ذلك باسلوب متين وألفاظ مصقولة كان يتعب حافظ في نحتها مما لا أفقد الاشارة اليه أو التوسع بهذه النواحي من حياته الاجتماعية والادبية مما سيعرض له كبار الكتاب الذين سيشتركون في كتابة هذا العدد الخاص من «السياسة» - ولكني أردت من هذه التوطئة أن أعرض الى تصوير هذه الروابط الادبية التي كان يعمل حافظ على توثيقها بين القطرين السوري والمصري في شعره رغم ما كان في نفوس أخواننا المصريين من التوتر والجفاء نحو فئة من حثالة السوريين كانت تدس خلال الحرب العامة على المصريين وعلى القضية المصرية، وهذه الفئة وان تكن سورية المنبت الا أنها محسوبة على ألسوريين ظلما وعدوانا لان عداءها وضررها على سورية لا يقل عن عدائها وضررها على مصر. ومثل هذه الفئات رجعية لا تخلو منها أمة من الامم!..

ان حافظ ابراهيم عرض الى هذه الروابط غير مرة والى ما يشوبها فصورها أجمل تصوير كما صور هذه النزعات التي تحدو بالسوري أن يركب الاهوال في سبيل أمانيه، ادراك غايته فقال:

لمصر أم لربوع الشام تنتشب؟
هنا العلى وهناك المجد والحسب

ركنان للشرق لازالت ربوعهما
قلب الهلال عليها خافق يجب

خدران للضاد لم تهتك ستورهما
ولا تحول عن مغناها الادب

ام اللغات غداة الفخر أمهما
وان سألت عن الآباء فالعرب

أبر غيبان عن الحسنى وبينهما
في رائعات المعالي ذلك النسب

ولا يمتان بالقربى وبينهما
تلك القرابة لم يقطع لها سبب

اذا ألمت بوادي النيل نازلة
باتت لها راسيات الشام تضطرب

وان دعا في ذرى الاهرام ذو ألم
أجابه في ذرى لبنان منتحب

وليس في هذا الشعر تصوير بديع لهذه الصلات الوثيقة بين القطرين وغمز دقيق بل تجاف صريح عن هذا الدس الذي كان يتبرع به بعض الدخلاء على الاثنين!.. ولقد كان حافظ - رحمه الله - مفتوناً بهذه الهمم العصماء التي تزجى بالسوري ان يغامر في سبيل الكسب والحياة فوصفه وصفاً دقيقاً بعد ان عرض بالخاملين من بني قومه فقال من قصيدة:

ورجال الشام في كرة الأر
ض يباروت في المسير الغماما

ركبوا البحر جاوزوا القطب ثانوا
موقع النيرين خاضوا الظلاما

يمتطون الخطوب في طلب العيـ
ـش ويبرون للنضال الصهاما

وردد هذا المعنى غير مرة فقال.

يضيق على السوري رحب بلاده
فيركب للاهوال ما هو راكبه

فما هي الا ان تجشمه النوى
وما هو الا أن تشد ركائبه.

وفي قصيدته «الاثنان تتصافحان» يقول:

بأرض «كولمب» أبطال غطارفة
أسد جياع اذا ماووثبوا وثبوا

لم يحمهم علم فيها ولا عدد
سوى مضاء تحامى ورده النوب

اسطولهم أمل في البحر مرتحل
وجيشهم عمل في البر مغترب

لهم بكل خضم مسرب نهج
وفي ذرى كل طود مسلك عجب

لم تبد بارقة في افق منتجع
الا وكان لها بالشام مرتقب

وهذه القصيدة معروفة من جميع قراء الادب فلا نرى من حاجة لاثباتها كلها فكل بيت منها يفيض بالعاطفة الزاخرة والشعور الحي نحو بلاد الشام والشاميين. ولا تنسى سورية قط قصته الشعرية التي واسى بها مدينة بيروت حين ضربها الاسطول الطلياني، وتعد هذه القصة من اجمل الشعر العاطفي. وقد مثلت غير مرة على مسارح سورية فكان تأثيرها عظيما وأثرها في النفوس بالغاً.

ولحافظ منزلة سامية لدى السوريين، شعره يتردد على كل لسان؛ وقد لا يوجد أديب أو متأدب الا ويستظهر أكثر قصائده الاجتماعية وأساتذة المدارس يعملون جهدهم على تلقين تلامذتهم أطايب شعره سيما ماله مساس بهذه النواحي الاخلاقية وتطور النهضة الاجتماعية، ومع أن حافظا لم يزر سورية ولبنان الا منذ سنوات خلت فقد كان اتصاله الوثيق باخوانه السوريين في مصر وتتبعه لمغامراتهم وما سمعه عن جمال بلادهم وسحر مواقعها الطبيعية - كل ذلك حداه أن ينفحنا؛ في كل مناسبة؛ بهذه النفحات الرطبة الوقع على النفوس. وحين زار سورية ولبنان عام ٩٢٩ بدعوة من جمعية التهذيب في الجامعة الاميركية في بيروت لالقاء قصيدة من نظمه احتفت به البلاد أطيب حفاوة وأقيمت له عدة حفلات تكريمية وكان الحفاوة به شعبيا وحكومة في قاعة الجامعة الاميركية في بيروت وفي دار المجمع العلمي العربي في دمشق وقد قلده رئيس الوزارة اللبنانية وسام الاستحقاق اللبناني كما قلده رئيس الوزارة السورية على صدره وسام الاستحقاق السوري. ولا أبالغ اذا قلت ان أكثر من مائة قصيدة قدمت له من كبار شعراء سورية ولبنان وأدبائها الممتازين ترحيبا وكشفا عن شعور البلاد نحوه ولا أزال أذكر هذه الابيات من قصيدته التي أنشدها في حفلة الجامعة الاميركية وهي قصيدة طويلة عرض فيها الى صلات القطرين والى نهضة البلاد العربية وما أذكره:

ما ان تقاضيت نفسي ذكر عارفة
هل يحدث الذكر الا بالتداني

لي موطن في ربوع النيل أعظمه
ولي هنا في حماكم موطن ثان

اني رأيت على أهرامها حللا
من الجلال أراها فوق لبنان

حسبت نفسي نزيلا بينكم فاذا
أهلي وصحبي وأحبابي وجيراني

ويقام في هذا اليوم الذي يصادف مرور أربعين يوما على وفاته حفلات تأبين كبيرة في دمشق وبيروت وحلب وفي حمص وطرابلس وحماه اشتراكا مع مصر بفقد هذا الشاعر العربي الكبير الذي لم تفقده مصر فحسب بل البلاد العربية كلها. رحمه الله وعزاء للعربية بفقده

حلب — سامي الكيالي

حافظ المجهول!!

بعث أولاد فقيد الشرق الرحالة العربي عبد الرحمن الكواكبي برقية تعزية الى شاعر العربية الاكبر المرحوم حافظ ابراهيم عقيب الوفاة بيوم واحد ترديداً للصلات الوثيقة التي كانت بين المرحوم والدهم وبين شاعر النيل ولم يمر ثلاث ساعات حتى جاءهم الرد هكذا:

اولاد المرحوم عبد الرحمن الكواكبي
حلب

أمرة حافظ ابراهيم انتقلت من المنزل
— البرقية موقوفة —

وغريب هذا التعسف الجائر من دائرة التلغراف بعدم تسليمها برقية كهذه وفي مثل هذه الظروف الى أحد أنسباء الفقيد لنذاع كغيرها! وهل وصل الحكومة العقوق الى أن تتنامى شاعر النهضة المصرية بمثل هذه السرعة!..

واذا كان من خطأ فقد ارتكبه أصدقاؤنا أولاد الفقيد الكواكبي فهو عدم ارسالهم البرقية الى عنوانه في عالم الخلود!

وقد ذكرتنا هذه الحادثة بسامي البرديسي المصري الذي التحق حديثا بالخدمة وأرجو مكتبا الى ادارة البريد رعليه هذه الجملة: «المرحوم توفي ولم يترك عنوانه»

حافظ ابراهيم

أعندك أنا لم ندع بعدك الوجدا ... وأنا ظننا الصبر يجدي ، فما أجدى
وهل يملك العاني المروع سلوة ... اذا لم يجد من لوعة أو أسى بدا
طوى البين من عهد الاخلاء ما طوى ... وأبدى من الوجد المكتم ما أبدى
سل الاربعين السود ، هل بت فاضل ... يرى العيش الا حالك اللون مسودا
لئن كنت في دنيا المسيئين زاهداً ... لقد زدتنا فيها وفي ناسها زهدا
فقدنك أدهى من نحب فجيعة ... وأوجع من نرجو البقاء له فقدا
لكل أديب من مصابك شجوه ... يطوف به ذكراً ، وينتابه سهدا
أكنت رسول العبقرية جاءنا ... بانجيلها ، ثم انثنى يطلب اللحدا ؟
أقمت من الآداب ملكاً مخلداً ... جمعت له الاخلاق تجعلها جندا
ومن عدم الاخلاق لم يغن علمه ... وان غاب الاقران ، أو جاوز الحدا
فقل للملوك الجاهلين مكانها ... أما تعرفون التاج والسيف والبردا ؟
ذكرتك مرجو المروءة نازعاً ... الى الصنم تسديه ، وتعتده مجدا
فتى عرى ملء برديه همة ... تريك الحسام العضب ، والاسد الوردا
اذا همته مستعدياً هجت ماجداً ... يفض مغاليق الامور ، وما استعدى
كريم السجايا لم يخن لصديقه ... ذماماً ، ولم ينقض لصاحبه عهدا

***

أ (حافظ) ان تبعد ، فشاعر أمة ... رمتها خطوب الدهر مغيرة نكدا
وان يذهب الصوت الذي كان عالياً ... فمجد بلاد ما استطعنا له ردا
حفظنا لك الآثار جداً رفيقها ... تجف الليالي ، وهي مخضرة تندى
يظل عليها الطير من كل صادح ... يذكر مجداً كل صب سلا نجدا
فمن عائد بالبرق يسترجم الهوى ... ومن لائذ بالريح يستدفع الصدا
تلقت شعوب (الضاد) نعيك خشية ... وراحت يهد الحزن أعلامها هدا
لئن بات (وادي النيل) بعدك جازعاً ... لقد روعت أنباؤك (الصين) و (الهندا)
وان يمس (لبنان) استبد به الامى ... فقد أصبحت (بغداد) والهة جدا
وما ملكت صبراً (ديار أمية) ... ولا حملت (أرض الحجاز) قنى جلدا
ثكالى نظمن الدمع فيك مفصلا ... كعهدك قبل اليوم اذ تنظم العقدا

***

لشد رزئت (أم اللغات) صديقها ... فان لم تكنه ، فالاب البر والجدا
فمقت تتلوى خلف نعشك كلما ... دعا باسمك الداعي أجد لها وجدا
حلما بلغت القبر خرت لوجهها ... تضج ، وتشكو من تباريحها الجهدا

***

رملت ديار الصامتين فكبروا ... وجاءوك ، يزجي الوفد من حولك الوفدا
وأوا شاعرا ماذ (كسرى) كعزه ... ولا مجد (ذي القرنين) اذ يرفع السدا
أما الشعر الا منزل الخلد لامرئ ... يريد حياة الذكر ، أو يؤثر الخلدا
قم غير مصروف الهوى عن ديارهم ... ودع عنك شعبا هازلا ينكر الجدا
نوحت ، تشكو منه شيمة ظالم ... يزيدك هجرا ، كلما زدته ودا
رويداً ، فقد فارقت دنياك فائزا ... وعفوا ، فليس الحر من يحمل الحقدا

***

أما والمطايا الواخدات لقد ونت ... دموع أطالت خلف أسرابها الوخدا
تساق حرارا من جوى الحزن مثلما ... تساق ، وتحدى في الملا قي كما تحدى
تروح وتغدو بالرفاق حثيثة ... فما للهوى عنها مراح ولا مغدى
قواطم للقرى ، طوالع بالاسى ... جوانح ما يتركن شبيبا ، ولا مردا
وما المرء ذو الانداد ان غاله الردى ... كمن لا ترى في العالمين له ندا
زن الناس ان كنت اللبيب ، ولا تكن ... كمن يتوخى الغي يحسبه رشدا
وصف مايعانى (النيل) من شعرائه ... ألم ترهم نلوا ، وان كثروا عدا
وان جانب الانصاف في الحكم ذو هوى ... فكن أنت حراء لا تكن للهوى عبدا
وان نقد الناس الرجال بمشهد ... فلا تنطق العوراء ، تحسبها نقدا
أما تستبين الرشد أنلام فتية ... شوارع في الاعراض يجملنها وردا
تداعت تدير الذم والحمد جهدها ... فما صدقت ذماً ، ولا أحسنت حمدا

***

(نزيل البلى) عطلت في الترب حكمه ... فأصبح لايسطيع حلا ولا عقدا
يرى فيك ان ناوك روعة غوله ... اذا ماعدا ، أو أنت من غوله أعدى
اذا أكل الدهر الرجال أكلته ... وان وأد الآثار أحرزته وأدا
عليك سلام من أخ لك صادق ... يزيدك قربا كلما زدته بعدا
نصيبك مني في الرثاء قريده ... وكنت امرءاً في عبقريته فردا

أحمد محرم

ذكرى وفاة شاعر النيل

للشاعر المطبوع الشيخ عبد العظيم يوسف

أيبقى في قرى الردى من منزع ... نخذى احتكامك يامنية أو دعى
هذى الدموع مناهل لك فاستقى ... ويا وهذا الناس نبت فارتعى
كيف السلامة في حياة جارها ... وراد حوض للنوائب مترع ؟
من صادمته جيوشها لم يمتنع ... بمناصل يوم النزال وأدرع
نصبت على الفجعات فانظر هل ترى ... أحداً على علاته لم يفجع ؟
ان تعطك الدنيا نفيسا ترتجع ... بل أن تهم بصالح لا تمنع
ترجى مواعدها سحابا كاذبا ... لا ري فيه وليس بالمتقشع
ولو انها سفرت لنا لاستقبحت ... لكنها استترت وراء البرقع
انا نيام في الحياة . وصحونا ... عند الوفاة . فهل نفكر أو نعي ؟
فتزودوا قيل الرحيل فانما ... زاد التقى ذخيرة للمرجع

***

شاد القصور معمر فخرابها ... ونمت لمهلكها يخال المرضع
والدهر لم يخلد على حدثانه ... ذو منكب عمم ورأى مقنع
يتضاءل الطود الاشم ليأسه ... وتميد قلته اشارة أصبع
طرقته أم الحتف بعد بنائها ... كثبا ومن يلق الردى يخضوضع
ولقد علمت ولا محالة أننا ... سفر الى غير البلى لم يوضع
دش مأنشاء ولاتخيل نجوة ... تصبح بمرأى للخطوب ومسمع
لم يبق شمل لم تبده ومعهد ... لم تحتبسه على الرياح الاربع
كعرت جناحي ملك كسرى عنوة ... وأصارت الايوان عرضة بلقع
أودت بلقمان الحكيم ولم تدع ... راعي السوام ولا انثنت عن تبع
وسمت الى ماء السماء وعطلت ... تاج الهرقل فذل بعد تمنع
وعفت كنوز المكثرين فأصبحوا ... تحت الضرائح في ثياب المدقع
من كل من يستصغر الدنيا له ... ملكا وتكفيه ثلاثة أذرع
كحلت مآقيهم بسهد ناصب ... فتسابقوا نحو الثرى للمهجع
وتجمع الاضداد بعد تفرق ... وتفرق الاحباب غب تجمع

***

يا أيها الناعي الينا (حافظا) ... أدميت ويحك كل قلب من نعى ؟
كاد الاسى ينسي النفوس عزاءها ... لولا أسى المتشهد المسترجع
أجهلت انك حين تنعى (حافظا) ... ترمي بسهم في الكنانة موجع
وترى من الآداب روضا صوحت ... تغنى عن المصطاف والمترتبع
طابت شذى وتنوعت ثمراتها ... حتى اقشعرت بالسموم الزعزع
ظلت اذا أنشدت منها آية ... فأولوا النهى من ساجدين وركع
تنسيك ما نسج الوليد وجرول ... ووعى رواة كثير والاصمعي
ما ضرني اذ كنت أنظر وشيها ... ألا أحل جنان واد ممرع
أطلعت كوكب معجز متألقا ... في الشعر ذكرنا باية يوشع
وملأت سمع الدهر درا ناضرا ... فعلى ثراك تحدرت في الادمع
للضاد بعدك أي عين ثرة ... تبكي على انسانها المسترجع
والشرق رد في وداعك زفرة ... حرى ، تكاد تقيم عوج الاضلع
والنيل سار وراء نعشك خاشعا ... كقريش في تشييعها لمحمد
مشت المروءة ذات خد مضرع ... من ثكل واحدها وأنف أجدع
ونعتك للفصحى نعاة أئمة ... ختموا بمنقطع النظير تميدع
يا لهفنا لك من كريم عهده ... أبى الدنايا للمحامد طيع
دف الخلال فلم يكن ذامرقم ... بوذى ولم يك ذا لسان مقذع
حفظ الوفاء وضيعته معاشر ... كم بين (حافظ) أمة ومضيع
ورعى الغيب فما تبيت لصاحب ... تسري فوارصه دبيب الشبدع
سمح القريحة واليدين وخيرها ... أدبا ندعى من هراء المدعي
ليث أخل بغيله ونديه مفى ... لسبيله . متصرعا لم يربع
كانت تحب به الحياة فلم تفي ... بغضت الى فأبغضي أو أمرعي
وبطشت حين بطشت لم تترفقي ... بمشيم منا ولا بمشيم

***

صعب المقام فمارثاء مقصد ... جزل وما قول الخطيب المصقع ؟
أتقول بحر غاص أم نجم هوى ... حلو شمائله لذيذ المكرع ؟
أم قبة الشرق المنيف تزلزلت ... ونبا الحسام العضب دون المقطع ؟
والخليتان به لصدر كتيبة ... أيامه الاولى . وصدر المجمع

أم أوحش النادى وجفت غديره ... من مقطع يروى الظماء ومطلع ؟
وبدافع الماح اللطاف كأنما ... شربت براح فى الزجاج مشعشع
وغرائب السمر الافيق كأنها ... زهر تفاوح بالهدى المتضوع
وخرائد السفر المرى كأنما ... باتت ضرائر للنجوم الطمع
استشفت الدنيابها عن غيرها ... دهراً . ومن يشرب فراحا ينقع
وكدت رياح الفضل بعد وعطلت ... صحف القريض من المجيد المبدع
ومحاسن لو للزنوج أقلها ... ما كان فيهم ذو محيا أسقع
شمأو تطلبه منافسه على ... أحجاز حمرى فى السباق وظلع
أخطبت ويحك رتبة من دونها ... هم العزيز من الرجال الارفع ؟
هيهات أن يحظى لسؤود (حافظ) ... أحد . فلا يخدعك زور المطمع

***

ولقد سعدت العيش بين أساود ... رقش . وبين ذئاب قفر جوع
وطفقت تلشد فى فريقك راحة ... مما تعانى . فى ظلال المصرع
فنهضت غير مسلم وصمت ... غير مكلم وظفت غير مودع
ونزلت وارا لاياب لاهلها ... حتى يقول الله للنسيم ارجعى
الله جارك فى مطارح غربة ... يحنو عليك بديمة لم تقلع
وهلى ضريح ضم شخصك رحمة ... طيب الجدار بها ويرد المضجع
وأزاره الصلوات كل ميسر ... للصالحات . وناسك متطوع
وجنا الزمان حياله مستغفراً ... من ذنبه كالتائب المتخشع
وتحية من صاحب غاورسته ... قلق الوساد مستهل المدمع
أمسى بمسقن البلاء ومن يبث ... رهن الاذى يسمع بمالم يسمع

عبد العظيم يوسف

الى روح محمد حافظ ابراهيم

دنا الطيف ياليلى وما زال ساريا ... خذى لى من الطيف الامين أمانيا
فعهدى بطيفى مثل طيفى عارما (١) ... وعهدى بطيفى مثل عهدى وافيا
أحن اذا شط الخيال وان دنا ... فرقت وطارت شعبة من فؤاديا
وانى لصبار على كل غمرة ... فما بال أنفاسى صدعن التراقيا
كان فؤادى يوم قيل تحمد ... جناح عتيق (٢) بات فى النفخ هافيا

***

تجرعت فيك الكاس حتى ثمالة ... اغض بما فيها فيزداد مابيا
بنا منك ما لو كان بالناس بعضه ... لجزوا رقابا أو لشقوا نواصيا
ولما رأيت الصبر عز طلابه ... زجرت لسانى فيك ثم بدا ليا
فنادیت حلمى أن يثوب فلم يطق ... فؤاد به من جذوة النار مابيا
سحابك (٣) شوقى والخليل تهيبا ... اعذت انوفا لما اتهمت بيانيا
فاغذرت وحدى ليس للشعر حيلة ... وأسرف فى اللوم العذول تماديا
وكرت عليك الاربعون فهل نوى ... خليلك مطران وصان رجائيا
وعهدى بشوقى كالحضم تدفقا ... فمابال شوقى اليوم أطرق ساهيا (٤)
وشوقى الذى يرنى الشموس اذا هوت ... فيبعثها بعد المغيب كما هيا

***

أهبت بهذا الشرق دهرا ولوصحا ... لهوم (٥) من نوم وحمى ليالیا
ونادیت قوما فى حمى النيل فيما ... فرجع واديه الصدى متناديا
ولو نفخ الصور الملائك فيهم ... وحمحم جوف الارض النار راغيا
ولو أرسل الروح الامين (٦) اذ نه ... فكبر حتى الحون والوحش عاويا
لقالوا صحونا طال والله نومنا ... وكان عميقا ذلك النوم هانيا
عتبت على قومى وفيهم ملالة ... ولو شفنونى (٧) ما ادخرت عتابيا
عتبت على قومى وجيبى ناصح (٨) ... ولو شاء قومى بلغونى مراديا
عتبت على قومى ومازلت عاتبا ... وعهدى بقومى يؤثرون المجابا
اذا دوهموا قالوا حبيب ملاطف ... وان جوبهوا ولوا اغضابا نواعيا

(١) عنيفا (٢) الكاسر من الطير (٣) نظير ك (٤) سعادة شوقى بك هو القائل:
ونا الذى أبنى الشموس اذا هوت ... فتعود سيرتها من الدوران
(٥) لهوم الرجل تمايل رأسه من النعاس (٦) جبريل (٧) شفنه أى نظر اليه بمؤخر عينه استصغارا أو غيظا (٨) وصدرى نقى

فلست اذا شئتم حبيبا وانما ... انا الجاهلى الجلف طبعى حلاليا

***

تمض عليك اليوم مصر بنائها ... وفى الشرق اصداء تجيب النواعيا
وما انت الا فى الجوانح والحشا ... اذا اقتسم الدود العظام البواليا
وانك ميراث يوونه غدا ... بنونا بنيهم والبنون الذراريا
كانى بقوم البسوا المجد زينة ... فما احسنوا عند الحساب التقاضيا
فلا يخدعنك المجد ظاهره نقد ... يرى المرء فى ثوب من المجد عاريا
وانت الذى لو بين مجد امقتة ... ولو قال حكما أسترد (٩) العواريا
الست العصامى الذى انتعل الدما ... وما آب الا من وحى السير حافيا

***

تروم القوافى وهى جد عصية ... فتنظمها عقدا على الدهر باقيا
وتودعها المعنى البعيد ولفظه ... اذا رامه المطبوع القاه نائيا
وأقرب من حبل الوريد عصيه ... اليك اذا مارمته جاء ساعيا
لالمء لم تشقب وذلك عتبها ... فما تخرج الاصداف الا عذاريا

***

خلا ذلك الوادى وقد كنت انسه ... وقفريه الشادى فاصبح خاويا
وصوح هذا الروض بعد بشاشه ... وأقفر مغنى كان بالانس حاليا
كان لم يكن بين المصب ومنبع ... « غريض » اذا غنى ثار العناديا
كان لم يكن انس وحلود عاية ... وما شئت من ظرف يجوب النواديا
تبرمت بالاولى وهمت باختها ... فياعدن (١٠) هذا الصب قد جاء عافيا

***

كانى بهذا الاليك بعدك نائح ... وقد كان مافى الاليك من قبل شاديا
لك الله ماذا بعد ستين حجة ... شغلت بها جيلا وغنيت واديا
اما لك فى الدنيا خصيم فيشتفى ... وقد قام من فى القطر بعدك ناعيا
فحسبى من الدنيا اذا جاء غاسلى ... ذهابى منها لا على ولا ليا
مزامير داود وأخلاق يوسف ... وحكمت لقمان فقهم رثائيا
سقاك وان لم يسترد الغيث غلة ... من الرعد حمحام يحث الغواديا
وجهدى بشعرى معقما فى سلوة ... فما بال هذا الخطب اعيى المدواليا
كانى من الرمضاء بالنار لائذ ... فان شئت ياقلبى فزدنى تماديا
تساجلت والدهر العناد فراضنى ... ومن صاول الايام ادير صالبا
فاما راضنى الا على السهد والامى ... وان كنت فى اللاواء كالطود راسيا
وقائلة ما بال طرفك واثبا ... يشق الى النجم البعيد الدياجيا
ففيم تناجى النجم بالله جاهدا ... أنت لديه تبتغى النجم راقيا
فما هكذا يستطعم الغيب كاهن ... ولا هكذا يستصعب النجم صابيا
هو الركب يا ليلى تتابع قافلا ... وخلى غريبا يخرق الليل حاديا
وما اعتصمت بى العيس بالليل صيوة ... الى بدويات سلبن فؤاديا
عقابيل مرض كان جرعنى الصدى ... أعل بها غبا فارتد صاديا
واعلاق وجد ما يشب ضرامها ... بصدرى الاخات قابى حابيا (١١)
لى الله ! أما ماضى فشبيبتى ... فماذا اذا خب المطى ليالبا
قواطع ايام عقرن شكيمتى ... ومازلن بى حتى عرقن عظاميا
وما زال بصمينا الزمان بنبله ... ويجلو علينا كل يوم عواديا
ومن عجم الايام التى جرانه ... (١٢) عليا ولو القت عليه المراسيا
انا ذلك لانوى (١٣) الغشمشم (١٤) ضاغما ... اذا ديش لى سهم تلقفت ثانيا
دعينى ياليلى وليلى وانجمى ... فما انت باليلى لهذا رلاليا
ولو ان آمالى ذنت لى قطوفها ... لقلت أعزبى انى ملكت مقاديا

فقامت وقد أوحى الصباح طليعة ... تطارد ليلا أورقا كان داجيا
تردد ياويلى عليك وعينها ... تعنفنى شكرى فقلت هياليا
خذى لى من الطيف الامان وعجلى ... دنا الطيف ياليلى وما زال ساريا

عزيز فهمى

(٩) الشطر الاول يشير الى قول الفقيد:
سعيت الى أن كدت أنتقل الدما ... وأبت وما أعقبت الا التندما
(١٠) قاصدا والبيت اشارة الى قول الفقيد يعنى نفسه
أضرت الاولى فهام بأختها ... وان ساءت الاخرى فويلا منهما
(١١) زاحفا (١٢) ألقى حرانه على الارض أى وطن نفسه عليه (١٣) اللدو فى الخصام (١٤) الغشمشم الذى يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شى
(١٥) لاذرق الذى يخالط سواده بياض

البؤساء

وهو نقد بديع وضعه زميلنا الأستاذ أنطون الجميل بك حين ظهر الجزء الثاني من البؤساء

اذا ما قلت اليوم كلمة « ترجمة البؤساء » التي زفها الى قراء العربية محمد حافظ ابرهيم الشاعر الفذ والكاتب القابض على أعنة البلاغة فانما هي زهرة أضعها الى الاكليل الباهر الذي ضفره حول جبهته أساطين كتابنا وأعلام أدبنا فيرأوه عن حق وأهلية أعلى منزلة في عالم الترجمة بعد ما رفعه شعره الى أعلى مقام بين أمراء القوافي . واذا أنا فعلت فانما هو واجب أقضيه كما يقتضيه كل أديب جزاء ما يمتعنا به حافظ من اللذة النفسية في استجلاء بنات فكره وما يحدثه في قلوبنا من نشوات الطرب الفكري الناشيء عن رشف رحيق شعره : ولو أطريت حافظا بمقدار ما أطربني في مجالي لاستقللت فيه كل حمد وثناء

***

لا أذكر ترجمة كان لها من كبير الوقع في عالم الادب العربي ، بعد ترجمة البستاني لالياذة هوميروس ، ما كان لترجمة حافظ ابرهيم لبؤساء هوجو . وما هذا الا بسبب قدر المترجم والمترجم عنه والترجمة نفسها . فاذا كان « هوجو » مفخرة آداب الفرنجة في عصرها الروائي الحديث فان « حافظا » لمعيد الى الادب العربي بهجة عصره الذهبي . واذا كان « هوجو » حاق في سماء البلاغة فقاض نوره على سائر الامم حتى قال فيه حافظ نفسه

أعجمي كاد يعلو نجمه
في سماء الشعر نجم العرب

فان حافظا ما أنشد شعرا أحرى رواة الناطقون بالضاد من ضفاف النيل الى موارد العراق الى شارف الشام الى قمم لبنان . فما كان أجدر « حافظا » بترجمة « هوجو » ، ما يمتان بجبل الادب الى نسب واحد

هذا هو المترجم وذاك هو المترجم عنه

أما الرواية المترجمة التي ربطت هذا بذاك فقدرها معروف ومرماها الاجتماعي أشهر من ان نحتاج الى الافاضة فيه

***

قالوا كل ما في « لامرتين » شعر والحان وكل ما في « شوبو » صور والوان . ونكرته لا تتسرب الى قلب كافكار سائر الشعراء فتتغلغل في طياته تمتزج به امتزاج الماء بالراح بل انها لتقتحمه حتما وتفتتحه عنوة فانه بفضل ابداعه في التشبيه والاستعارة وسائر انواع المجاز يجعل من المعقولات محسوسات ويصير غير المرئي مرئيا فان الافكار في شعر هوجو لاشبه شيء بتلك الصور التي تحسها تنظر اليك من أية جهة نظرت اليها . ولم يدرك « فيكتور هوجو » هذه الميزة الكتابية الا بامتلاكه ناصية المفردات في لغته ومعرفته طرق استعمالها في الجملة حتى أنك لتحسب الالفاظ تتحدر من قلمه تحدر الماء من الشلال وهو من هذه الوجهة امام المنشئين

ولقد تكون تلك ميزة حافظ أيضا بين كتابنا مع بعض تحفظ

فلا تعجب والحالة هذه اذا كان حافظ عند ما صحت عزيمته على نقل شيء من آداب الفرنجة الى لغة الضاد ، قد تخير فيكتور هوجو من بين سائر المنشئين الاعلام فاتحفنا بالجزء الاول من البؤساء منذ ثمان عشرة سنة وهو في أول نضوج قريحته . واذا كان بعد ذلك قد ترجم كتابا في « الاخلاق » و « الموجز في علم الاقتصاد السياسي » فانه لم يلبث ان عاد الى « فيكتور هوجو » واتحفنا بعد مضي حقبة طويلة من الزمن ، وهو في كمال النضوج ، بالجزء الثاني من بؤسائه . ولا عجب فما القلب الا للحبيب الاول

***

وترجم حافظ هذا الجزء كما ينظم قصيدة ، فنسق عباراته كما ينسق قوافيه ، وتخير مفردات نثره بما اشتهر عنه من التدقيق في تخير مفردات شعره . ولكم لقيته وهو ينشد لي صفحة من « البؤساء » كما ينشد مقطعا من شعره الجزل .

واذا رجعنا الى حكم حافظ نفسه قد نجده يؤثر بعض صفحات ترجمته على بعض مقاطع ديوانه لان تلك قد كلفته قدر ما كلفته هذه . ومعزة الشيء كما يقولون بقدر ما يكلف وكذلك قيمته

وان لترجمة « البؤساء » قيمة أخرى غير ما كلفت المترجم من عناء في تأدية المعنى — والمعنى يذهب احيانا من سطور هوجو حتى ليكاد يفلت من القارىء — ومن عناء في التماس ذلك المعنى ، متى قبض عليه حلة عربية قشيبة ، ومن عناء في الصقل وربط المعاني بعضها ببعض الى غير ذلك . وتلك القيمة هي في احتمال مقارنة الترجمة بالاصل متى كان الاصل شائقا كالبؤساء . ولا عجب فتصوير الحسناء أصعب من تصوير الدميمة لان الناس ، وقد فطروا على حب المقابلة ، لا يلبثون أن يكتشفوا كل عيب في الوسم متى رجعوا الى الاصل وكان جميلا

أما عيوب هوجو — وجل من لا عيب فيه — فهي ، كما قالوا ، نتيجة ملازمة لمحاسنه . فهو اذا ما أغرق في تلك المحاسن وأسرف فيها لا يسلم من الاخطاء الى الذوق في مواطن كثيرة . وقد يكون الشبه كبيرا من هذا القبيل بين فكتور هوجو وأبي الطيب المتنبيء من شعرائنا الغابرين ، وبينه وبين حافظ ابراهيم من شعرائنا اليوم

واذا كان لنا من ماخذ على ترجمة حافظ فذلك نتيجة اسرافه في حب الاتقان حتى جاءت ديباجة الكتاب على وتيرة واحدة من أوله الى آخره مهما اختلف المقام وتغيرت الحال . وليس الكتاب في أصله على شيء من ذلك بل هو معرض لجميع طبقات الانشاء وانماطه لا سيما وان معظم أشخاص الرواية ، كما يدل عليه عنوانها ، من السوقة أو من الطبقة الوسطى أي ان المؤلف في كلامهم وطرق تعبيرهم . حتى اذا ما كان ينتهي من ايراد أقوالهم أو حوارهم كان يندمهم هو في ملاحظاته العمرانية وانتقاداته الاجتماعية وتحليلاته النفسية فيحلق في سماء البلاغة ويبلغ أوج الابداع والجزالة في الانشاء . وياحبذا لو نهج حافظ هذا النهج ونوع أسلوبه الانشائي فراراً من وحدة السياق المملة : فان عبارته رافقها الجزالة وتصحبها البلاغة من أول الكتاب الى آخره سواء أكان المتكلم نجاراً أم قرويا أم خادما في فندق ، مما يجعل حوار مثل هؤلاء الناس البسطاء أقرب شيء الى مقامات الحريري لو استثنينا السجع . ولذلك قد يتعب القارىء من قراءة هذا الجزء الصغير من الترجمة اضعاف تعبه من قراءة أجزاء الاصل بجملتها وانا المورد دون على ذلك بعض الشيء على سبيل المثال

احتاج جان فلجان الى نجار يصلح له مركبته ليواصل سفره فقال (صفحة ٥٤) : « أبغي نجارا له خصيصاء بهذا العمل »

ولقي في طريقه رصاف حجارة فسأله عن سبيله فأجابه الرصاف (صفحة ٦٢) « ما أخلقك بالعروج على طريق آخر فعليك ان تتيامر ثم تركب طريق كذا ثم تعبر النهر فاذا بلغت مكان كذا فتيامن وارك المحجة الى مدينة كذا » .

ومثل ذلك كلام الخادم (صفحة ٦٣) « نحن بين طريق وعر وليل خليق ان تصدنا عما مر به عن السرى

وقس على ذلك استعماله « بسل » بدلا من « حرام » و « معناة » بدلا من « معنى » و « الناس حولك قنابل قنابل » بدلا من « جماعات » و « وشيم الساعة » بدلا من « نحو الساعة » الخ ..

يقول العرب : « لكل مقام مقال »

ويقول فولتير : « تارة اسمي باريس ، باريس ، وتارة اسميها عاصمة فرنسا » فقد يحسن استعمال « بسل » و « قنابل الناس » واضراب ذلك من المفردات ولكن في غير المقام الذي استعملت فيه في ترجمة البؤساء . ولا نظن حافظا عند ما استدعته لجنة وزارة المعارف لمناقشته في كتابه قبل اقرار تدريسه في المدارس قد تكلم بمثل هذه اللغة . فاماذا يريد بأن يضعها في أفواه غلمان الفنادق وصبيان الازقة ؟

ولا عذر لمترجم البؤساء في طرق هذا النمط من الكلام الا اذا كان يرمي — ولا محاله — الى مارمى اليه أحمد فارس الشدياق في كتابه « الساق على الساق » من جمع شوارد اللغة في قالب رواية .

ولا نقتفر لحافظ وصفه لجواد بما يأتي (صفحة ٥٢ وص ٥٣) : « وكان جواداً عظيم السليل ، سحيرا ، ادك ، اهنم ، مفتوح اللبان فهو وان لم يكن أصيلا كان عصاميا متينا » لا نقتفر له هذا الوصف ولغة العرب على ما هي عليه من الثروة في وصف الجياد .

وقد كفانا فيكتور هوجو نفسه في كتاب « البؤساء » ذاته مؤونة نقد هذا الاسلوب الذي تشوبه شائبة التصنع والتكلف فقال — والترجمة لحافظ نفسه — (صفحة ٩٢) عن كلام طائفة من الناس :

« فكانوا اذا ذكروا الزوج قالوا البعل . والزوجة قالوا الحليلة . والملك قالوا رب التاج والصولجان ، واذا ذكروا باريس قالوا أم الفنون ومهد المدنية . فالمدعي العام في تفهم خطيب الاتهام المصمم . والمرافعة الصيحات التي تسمعها المحكمة . والاسرة المالكة دماء ملوكنا الكريمة وخطأ الصحف الكذب الذي تنفث سمه في أنهارها . . » الخ

***

وتزيد هذه الهفوات بروزاً مافي الترجمة من محاسن لا تعد . فكم من مرة أبرز « حافظ » المعنى السامي بعبارة هي آية في البلاغة جمعت الى انسجام اللفظ وعذوبة المفرد تناسق التركيب واحكام السبك مما لا يلتقي تكثيره غير حافظ . والامثلة على ذلك كثيرة تجدها في معظم صفحات الكتاب نورد بعض الشهير منها للدلالة على السهل الممتنع :

قال واصفاً الندم الذي يستولي على الانسان (ص ١٧) : « والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يرد البحر عن العود الى شاطئه ، استطاع أن يرد الفكر عن العود الى مناطه . وعلة البحر في ذلك يعرفها الملاح وهي المد والجزر . وعلة الفكر يعرفها المذنب وهي الندم . فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط . »

وجاء (ص ٣٦) : « انما تأنس الحقائق في دياجير افكار الفكر . فمثلها كمثل الماس لا يلتقط الا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل — خيل اليه انه هبط الى تلك الاغوار فسلك في أشدها حلوكة وأبعدها مدى ثم جعل يتحسس بيديه في تلك الدجية حتى ظفر بحجر من ذلك الماس أو بحقيقة من تلك الحقائق وما ليقبض عليه اذ تفجر منه نور كاد يعشي بصره

وقال (ص ٦٧) في المرض الذي يعتل الشيخوخة : « اف من المرض فانه يرتجل الشيخوخة وانه لا يجب مطايا السكير »

وما ألطف ترجمته حيث يقول (ص ٧٨) « وكان أبرأ من الثلج ونصالا من النار قد اعتورت فؤاده وخزا وطعنا ولم يدر أكان مأتاها الالم أم السرور . »

وهل أبلغ من ترجمة حافظ لوصف احتضار « فانتين » (١٢٤) قال :

« وقد اهتز جسمها من قرنها الى قدمها كأن أجنحة خفية ركبت فيه وأوشكت أن تنشر للطيران ، حتى ليخيل للناظر اليها انه يحس ترويحها وان لم تقع عليها عينه . .

« ألم تر الى الغصن كيف يضطرب كلما امتدت يد لقطف زهره ؟ الا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها في آن فهو يعطي ويمنع في وقت معاً ؟ — كذلك الجسم البشري فقد تنتابه تلك الهزات حين تحين الساعة التي تمتد فيها يد الموت الخفية لانتطاف الروح »

هذا خير مثال للترجمة وللانشاء معاً .

***

وبعد هذه المحاسن التي يسمح لنا استاذنا حافظ أن لا نقرها على التقييد — وهناك نقول على التقليد — في كتابته . فهو يخشى أن يختط أسلوبا جديداً مع أن له من مقامه الرفيع في عالم الادب ما يجوز له ما لا يجوز لغيره — شأن أساطين اللغة وأئمة الكتابة ونود لو استفاد من صحبته الفكرية لصاحب البؤساء شيئاً من جرأته على القديم البالي . فان فيكتور هوجو كان يباهي بانه « أثار ثورة في قعر الدواة وبسط على رؤوس مفردات اللغة لواء المساواة ، فلم يبق فيها لفظ من النبلاء ولفظ من السوقة » وقد بسط غرض ثورته اللغوية هذه أجمل بسط في مقدمة رواية (كرومويل) التي تعد البرنامج الادبي للمدرسة الحديثة

واننا لموجهون النظر الى هذا الامر لانا قد نكون — بعد ثورتنا الفكرية وثورتنا الاجتماعية — في بعض الحاجة الى شيء من الروح الثورية في اللغة أيضاً

أنطون الجميل

حفلة تكريم

حافظ ابراهيم

خطبة القاها الاستاذ الكبير محمد كرد علي

في سنة ١٩٢٨ في حفلة تكريم اقيمت لحافظ . قال حفظه الله .

حافظ لمفخرة العرب
« وخيب الشامتين »
ياسيداتي وياساداتي

اذا رحب أهل هذه الديار بحفظ ابراهيم بك فانما يرحبون بنابغة عظيم في الشعر العربي اخرجه من ثيابه البالية وألبسه من عبقريته ثوبا جميلا شفافاً يليق أن تظهر به أمة كانت أعظم أمم الارض بحضارتها وآدابها وهي تحرص اليوم أن تسترد ذاك الماضي الباهر مطبوعاً بطابع العصر الحديث .

ليس شاعر النيل من الرجال الذين يحتاجون الى التعريف بهم والترجمة لهم فشعره كالأمثال السائرة وقصائده يحفظها الرجال والنساء وله من الحرمة في كل قلب مالا يقل عن اعظم امثالا كبر شاعر من شعرائنا في الدهر الغابر .

وكل هذا لانه صرف الشعر منذ نشأته في الاغراض الشريفة ضرفه فرفع مستوى الامة في العلم والعمل فوصف داءها ودواءها وهز بوعظه اوتار قلوبها فكان شاعر الاجتماع بغير مدافع لابتداعه طريقة جديدة في تثقيف العقول وتهذيب الملكات فكان بتأثير شعره مرشد أمته ولسانها الناطق بالحق .

ومهما يالغنا معاشر الشاميين بالحفاوة بشاعر النيل فاننا نرد عليه الآن واحداً من ممة مما أسداه الينا خاصة وللأمة العربية عامة . هو بخلد أعمال الشاميين بشعره الخالد فلا عجب اذا احتفلت به عاصمة الأمويين اليوم بجميع طبقاتها فانه السابق الى الفضل والاحسان .

وان منبر المجمع العلمي العربي ليفاخر منذ تأسيسه بان اسم حافظ ذكر عليه عشرات من المرات وأنشدت قصائده ورقائقه وحكمه واستشهد المحاضرون بشعره وكانت آخر محاضرة في تحليل روحه السمي وشعره الاجتماعي مما القاه هذا العاجز في السنة الماضية وقد قلت في جملتها :

« وعشق حافظ الشام أيضاً ولم يطوف ارجاءها ولا رأى ارضها وسماءها وعاشر الشاميين وحنا عليهم وذكرهم بالاعجاب في شعره السائر يعز بأقدامهم نفوس الخاملين من المصريين ليحذوا في الكسب حذوهم ويضربوا في الآفاق على مثالهم .

ومن شعره في غلاء الاسعار يذكرهم الشاميين ويقرع المصريين :

أيها المصلحون أصلحتم الأو
ض وبتم عن النفوس فياما
اصلحوا انفساً اضر بها الفقـ
ـر واحيا بموتها الآثاما

ليس في طوقها الرحيل ولا الجـ
ـد ولا ان تواصل الاقداما
تؤثر الموت في ربى النيل جوعاً
وترى العار أن تعاف المقاما
ورجال الشآم في كرة الار
ض يباروت في المسير الغماما
ركبو البحر جاوزو القطب فاتوا
موقع النيرين خاضوا الظلاما
يمتطون الخطوب في طلب العيـ
ـش ويبرون للنضال السهاما
وبنو مصر في حمى النيل صرعى
يرقبون القضاء عاما فعاما
أيها النيل كيف تمسي عطاشاً
في بلاد رويت فيها الانامـا
يرد الواغل الغريب فيروى
وبنوك الكرام تشكو الاواما
ان لين الطباع أورثنا الذ
ل وأغرى بنا الخفاة الطغاما
ان طيب المشاخ جر علينا
في سبيل الحياة ذاك الزحاما

ومن هذا المعنى ماقاله في قصيدته (الامتان تتصافحان) ويعني بها الامة المصرية والامة الشامية امتدح فيها أبناء الشام وسيرتهم في أميركا ولا سيما في نشر اللغة العربية :

بارض (كولمب) أبطال غطارفة
أسد جياع اذا ماوثبوا وثبوا
لم يحجهم علم فيها ولا عدد
سرى ضياء تحامى ورده النوب
اسطولهم أمل في البحر مرتحل
وجيشهم عمل في البر مغترب
لهم بكل خضم مسرب نهج
وفي ذرى كل طود مسلك عجب
لم تبد بارقة في أفق منتجع
الا وكان لها بالشام مرتقب
ماعابهم انهم في الارض قد نثروا
فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يضرهم سراء في مناكبها
فكل حي له في الكون مضطرب
رادو المناهل في الدنيا ولو وجدوا
الى الهجرة ركبا صاعداً ركبوا
أو قيل في الشمس للراجين منتجع
مدوا لها سببا في الجو وانتبوا
سعوا الى الكسب محمودا وما فتئت
أم اللغات بذاك السعي تكتسب
فاين كان الشاميون كان لها
بيش جديد وفضل ليس يحتجب

وفي هذه القصيدة يقول في اتحاد مصر والشام في الجنس اللغة وتشاركهما في الهناء والشقاء:

ركنان للشرق لا زالت ربوعهما
قلب الهلال عليهما خافق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورهما
ولا تحول عن مغناها الادب
ام اللغات غداة الفخر أمهما
وان سألت عن الآباء فالعرب
اذا ألمت بوادي النيل نازلة
باتت لها راسيات الشام تضطرب
وان دعا في ثرى الاهرام ذو ألم
أجابه في ذرى لبنان منتحب
لو أخلص النيل والاردن وردهما
تصافحت منهما الامواه والعشب

وقد ختم هذه القصيدة في الصلح بين الاختين بقوله :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم
فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما انكنانة الا الشام عاج على
ربوعها من بنيها سادة نجب
لولا رجال تغالوا في سياستهم
منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا
أن يكتبوا لي ذنبا في مودتهم
فانما الفخر في الذنب الذي كتبوا

وقال من أبيات :

يضيق على السودي رحب بلاده
فيركب للاهوال ماهو راكبه
فما هي الا أن تحشمه النوى
وما هو الا أن تشد ركائبه

ووجه كلامه الى مصر كانه يريد الصلح بين القطرين فقال ابياتا ثلاثة

ماذا جنيت وما جناه بنوك
أظلمتهم يامصر أم ظلموك
فيمت للغرب الطموح واهله
ومنحتهم فوق الذي منحوك
وحبست في وجه الشام وانما
قطر الشآم وان حبست أخوك

وقال من قصيدة في تكريم صديقه خليل مطران :

انما الشام والكنانة صنوا
ن برغم الخطوب عاشا لزاما
أمكم أمنا وقد أرضعتنا
من هداها ونحن نأبى الفطاما

وآخر حسنات حافظ قصيدته الاخيرة التي يقول فيها وهي كسائر شعره كلما كررت حلت :

ابت امية ان تفنى محامدها
على المدى وابى ابناء غسان
فمن غطارفة في جلق نجب
ومن غطارفة في ارض حوران
عليوا المنزلة في الدنيا فعندهم
عز الحياة وعز الموت سيان
لا يصبرون على ضيم يحاوله
باغ من الانس او طاغ من الجان

شققت أسواق بيروت فاخذت
عيناي في ساحها حانوت بولاق
فقلت في غبطة لله درهم
ليس الفلاح لوان غير يقظان
تيمموا ارض (كولمب) فما شعرت
منهم بوطء غريب الدار حيران
سادوا وشادوا وأبلوا في مناكبها
بلاء مضطلع بالامر معوان
ان ضاق ميدان سبق عن عزائمهم
صاحت بهم فأدوها الف ميدان
لايستثيرون ان هموا سوى همم
تأبى المقام على ذل واذعان
ولايبالون ان كانت قبورهم
ذرى الشوامخ أو أجواف حيتان
في الكون مورقهم في الشام مغربهم
والغرس يزكونا لاسقين بلدان
ان لم يفوزوا بسلطان يعزهم
ففي المهاجر قد عزوا بسلطان
أو ضاقت الشام عن برهان قدرتهم
ففي المهاجر قد جاؤا ببرهان
انا رأينا كراما من رجالهم
كانوا عليهم لدينا خير عنوان
انى التقينا التقى في كل مجتمع
اهل باهل واخوان باخوان
كم في نواحي ربوع النيل من طرف
للبازجي وصروف وزيدان
ركم لاحيائهم في الصحف من اثر
له المقطم والاهرام ركنان

أما وقد رأينا هذا النموذج الصغير من عطف حافظ على الشاميين أفلا يتصاغر ربكم كل اكرام أمام محامده الكثيرة . الا يغتبط متاكل من غذى زمناً بثمرات روحه أن يرى اليوم شخصه الكريم بين أظهرنا . الا نعتقد كلنا اننا عاجزون عن شكره والى القصور في الحفاوة به لايسعنا الا عفوه .

يا أخي حافظ . اننا نحييك معترفين ببعض اياديك البيض . نحيي في شخص شاعر النيل ابناء النيل الاعزة . نحيي بك مصر المحبوبة والنبوغ المصري . ومتى رجعت بالسلامة الى مطلع شمسك فاقرأ على أهلك وعشيرتك سلام جيرانهم في الشام واذا انساك شيطان الشعر ذلك فالرجاء من رفيقك في رحلتك صديقي شاعر القطرين خليل بك مطران الذي كان طول حياته احسن صلة وعائد بين المصريين والشاميين لمكان اخلاقه العالية وأدبه الجم أن يعذر قصورنا فهو من اعرف الناس بنا وبهم . هذا والله يتم الامة بحياة حافظ ويزيد في هنائه وسعادته

العبقرية الطليقة

حافظ ابراهيم
يمثل مصر المتألمة

ما زلت كلما مر بخاطري ذكر حافظ ؛ يملأ روحي احساس دافق قوي يفتح أمام ذهني آفاقا رحيبة شاسعة في التأمل . وما زلت كلما امعن النظر في شعر حافظ تستوقفني فيه صور خاصة أجد لذة في تأملها وأجد متاعا رائعا في استيعابها . فتصرفني عما في شعر حافظ من صور ومعان لا تقل هي الاخرى في قوتها واشراقها عما في تلك من بهر وجلال .

وهذه الصور وتلك المعاني هي قبسها التي جعلتني أذهل يوم نعى الينا شاعر مصر الاكبر وكنا اذ ذاك في ذكر حافظ وفيما يثير في النفس ذكر حافظ . فهو قد تحرر من اسار الوظيفة . ونحن كنا نرى في ثمار هذا التحرر بوادر تدفع الى صدورنا الامل والمسرة . ونحن نذكر الى جانب هذا أن الشرق العربي اليوم قد قويت فيه عناصر الحياة وانه أشد ما يكون شعوراً بالذل الذي يعيش في ظله وأشد ما يكون تحفزاً الى تحطيم تلك القيود التي تغله عن الحركة وتطلق في افق حياته من سمومها وسهامها ما ينشر في شتى نواحي هذه الحياة ظلاما رهيباً يدلف بنا وئيداً نحو الموت والفناء .

كنا نذكر هذا ونذكر أثر الادباء والمفكرين والشعراء في بث الروح المثرثب المتمرد وايقاظ القوى الكامنة والهاب المشاعر الراكدة . واستنهاض الهمم المستكينة والنزائع الخائرة واثارة الاذهان الفاترة المتبلدة .

كنا نذكر فولتير . وروسو . وأندريه شينيه . وهوجو . في فرنسا . وفريدريك شيلر في المانيا . وهوشيه في الصين . وميجيل دي اونامونو في اسبانيا ...

كنا نذكر هؤلاء جميعاً كرسل للحرية والنور والحق . حتى اذا درنا بابصارنا في شرقنا التاعس ورحنا نلتمس من بين مفكرينا وشعرائنا من يساهم في خلق الروح الوطني الخالص ويعمل على اذكاء اسبابه في النفوس . من يثور في وجه الظلم والاستبداد غير هياب . فيعبر عن شعور قومه . ويمثل آلامهم وآمالهم ؛ وشتى نزعاتهم وأحلامهم رأينا حافظا أول من يقف في الطليعة وأجدر من يضطلع بهذا العبء وأقوى من يحمل المعول الرهيب

واذ كنا في ذكر هذا كله . واذ نحن أشد ما نكون غبطة . وأكثر ما نكون اندفاعاً وراء الامل وتشبثاً به . اذ كنا نرى أن حافظاً قد عاد الى ميدان الجهاد موفور العدة . قوي الارادة . صارم العزيمة . بادي الحماس . متحفزاً للنضال ... واذ كنا نلمح في هذا كله نوراً توهجاً جديداً يملأ حياتنا ايمانا وينفث في قلوبنا طربا وضراما ... اذا بنا نفجع بحافظ . واذا الامر يختلط علينا . فنحن في ذهول تتهاوى حياله كل تلك الصور والمعاني التي كانت منذ برهة تدور في خلدنا وتجس بها أرواحنا . وتخفق لها صدورنا . هاته الصور والمعاني جميعاً سرعان ما تلاشت لتستوي في بهرة خيالنا الحقيقة المرة صارخة « لقد مات حافظ ! »

واليوم وقد فقدنا حافظاً ونحن أحوج ما نكون الى قوته المتوثبة وعزيمته المكتسحة وروحه المثرثب ، اليوم نعود الى تراث حافظ وآثار حافظ نستكشف خلالها عبقريته وأسباب نبوغه . ونلمس في تضاعيفها عناصر تلك النفس الزاخرة المتهيبة . ونستوحي قوى تلك الشخصية المتفوقة التي وسعت في رحابها من ألوان الآلام . وضروب المحن . وعصفات الايام حظاً وفيراً ... وأقرب النواحي من شخصية حافظ الى القلوب واشدها بروزاً وأدعاها الى الدرس والتمحيص . هي تلك الناحية التي تتصل أوثق الاتصال باسباب حياتنا اليوم . وتعبر أدق التعبير عما يجيش في صدورنا في هذه الظروف المؤلمة التي نعيش في ظلها . هذه الناحية التي تخاطب قلوبنا الدامية وآلامنا المرهقة . وتشعر باصلابة القيود التي تستنزف دماءنا . وتستذل نفوسنا . وتبصر شتى صور العسف والتنكيل تغشى حياتنا وتفسدها افساداً مريعاً . ومن ثم تتشوف معانيها آمالنا ومصالحنا وتلقي الضياء على مختلف أحلامنا وأغراضنا ..

هي هذه الناحية التي أريد أن ابحثها . والتي لا أذكر اليوم حافظاً الا ذكرتها ورحت أنهل في فيض انتاجها . وأفتح صدري لدويها يثيرني ويضرم لهب النقمة في أبعد أغوار روحي

حسبي اذن هذه الناحية أحدثك عنها . فان نواحي هذه العبقرية المتعددة المليئة ، احفل حياة . وأبعد مدى . وأعمق غوراً وأدعى الى تأمل المستقصي في أن يستوعبها مقال واحد وينفذ الى صميمها وجوهرها هذا البحث وهي قمن بسفر شامل يجمعها كلها في اطار من دقة التحليل وبعد مرمى البصر . وسداد الرأي وصحة الادراك وصدق العاطفة والاخلاص في البحث .

***

كانت غمرة في الجهل والتخاذل والخمود . ترون في مهاويها كل نواحي الحياة في هذا الشرق العربي . وسكنت فيه كل نأمة تدل على الحياة المتوثبة . وهدأ كل ركز يشير الى التدفق والتحفز . وتخلفت الجماعات كليلة متخاذلة كأنها قد ملت أن تعيش . وكأنها قد زهدت في انسانيتها . ورغبت في حياة العبيد . واطمأنت الى الموت تدب عناصره في كيانها . وآثرت الفناء يحققها ويودي بها

ومصر في هذا الشرق فالها من أسباب الهوان أوفر حظ وأذعنت للعنت يلحق بها في يدي الاجنبي . ورسفت في القيود الوحشية تثقل فيها كل حركة وتحمن في ثمرها واستعبادها

فماذا بقي ثمة لم تمتد اليه يد الاجنبي تستغله وتسيطر عليه ؟ أثروة مصر وخيرها ؟ لقد حرم أبناؤها من هذا كله . وباتوا تهددهم الفاقة ويفتك فيهم العوز . فانظر الى حافظ يرسم لك صورة قوية حية معبرة عن هذا البؤس .

أيشتكي الفقر غاديها ورائحها
ونحن نمشي على أرض من الذهب
والقوم في مصر كالاسفنج قد ظفرت
بالماء لم يتركوا ضرعا لمحتلب

وأي عبث هذا الذي لم يقتصر على الثروة والمال . وراح يمعن بما هو أسمى من هذا وأعز جانبا فينال منه ويبذر في الفساد ما يشاء فهل كانت الضمائر بمنجاة عن هذا العبث ؟ وهل هي سلمت من سمومه وطعناته ؟ سل اذن حافظا ينبئك أصدق نبأ .

فيا لبنيك من وجدان قومي فارتفي
حياتي ولا اشقى بما أنا طالبه
بناء ون تحت الضيم والارض رحبة
لمن بات يرضى جانب الذل جانبه

فأي وجدان هذا ينوء بمطالب صاحبه وطموحاته الا ان يكون وجداناً نخراً لا تحقق فيه حياة ولا تجيش في جنباته اصداء . وأي شعور هذا يمسك المرء عن السعي والحركة والتوثب الا أن يكون شعوراً مبتوراً خنقته ضروب الاستعباد والاستخذاء .

كأن هذه العناصر الغريبة قد قلبت في مصر قيم الاشياء وعكست الامور واجرت المنطق في غير مجراه . فضلت الاذهان وزاغت البصائر . واستوى في الرؤوس الصواب والخطأ . والرشد والغي . فينقل حافظ هذه الصور ويرسمها بالوان من السخرية المريرة والهزء الاليم . تشمرك بالاسى الدفين يفري كبده . فاسمعه يخاطب قاسم امين :

اقاسم أن القوم ماتت قلوبهم
ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه
الى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم
فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه ؟
فلو أن شخصاً قام يدعو رجالهم
لوضع نقاب لاستقامت رغائبه (!!؟)

ودونك صورة أخرى عازفة ولكنها تقطر الماء . يصف فيها قومه وكأن ليس في الدنيا ما يشغل خواطرهم ويسترعي اهتمامهم الا المظاهر الكاذبة والاعراض التافهة :

يا ردائي جملتني عند قومي
فوق ما اشتهي وفوق الرجاء .
أن قومي ثروقوم جدة الثو
ب ولا يعشقون غير الرواء
قيمة المرء عندهم بين ثوب
باهر لونه وبين حذاء .

وأية سخرية أبلغ من هذه السخرية الكئيبة العابسة ؟ الست تشعر ان القوم قد هان عليهم قدر أنفسهم . كأنهم ليسوا في شقاء . وكأنهم ليسوا من اسار من الاستعباد حتى ينصرفوا الى ألوان من الحياة السخيفة السادرة في احضان الذهول ؟

ولكن أليس هذا الذهول نفسه أثراً مميتاً في آثار تنكيل الاجنبي الدخيل المسيطر ؟ ويأخذ حافظا حنين الى الماضي المجيد وشوق الى عز ذاهب وحسرة على سلطان بائد ولوعة على مجد زائل فيقول متوجعاً :

لم يبق شيء من الدنيا بايدينا
الا بقية دمع في مآقينا
كنا قلادة جيد الدهر فانفرطت
وفي يمين الملا كنا دراريها
كانت منازلنا في العز شامخة
لا تشرق الشمس الا في مغانينا
وكان أقصى منى نهر المجرة لو
من مائة مزجت أقداح ساقينا
والشهب لو انها كانت مسخرة
لرجم من كان يبدو من أعادينا

ثم يدير طرفه في حاضره ويحس بالاصفاد والاغلال ويلمس البؤس والضنك فيلتهب عند هذه الحقيقة المرة فيزفر بحرقة :

فلم تزل وصروف الدهر ترمقنا
شزراً وتخدلنا الدنيا وتلبسنا
حتى غدونا ولا باه ولا نسب
ولا صديق ولا خل يواسينا

وينظر حافظ كيف ان الامم لا تحترم ولا تستكين ولا تستلذي وكيف انها تقاوم وما تفتأ تناضل عن كيانها وتدفع الخطر عن حياتها . وتسمى دائبة الى العلا وتشهد السؤود وتركب الصعاب في سبيل المجد والتفوق . فتوحي اليه اليابان الظافرة القوية بهذه الخواطر فينقشها على القرطاس دماً

غادة اليابان :

نبؤوني برحيل عاجل
لا أرى لي بعده متقلبا
ودعاني موطني أن اغتدي
على أقضي له ما وجبا
نذبح الدب وتفري جلده
أيظن الدب أن لا يثأبا

الشاعر

قلت والآلام تفري مهجتي
ويك امتصمي في الحرب الظبا
فلسليني انني مارستها
وركبت الهول فيها مركبا
وتقحمت الردى في غارة
أسدل النقع عليها هيدبا
قطبت ما بين عينيها لنا
فرأيت الموت فيها قطبا

غادة اليابان

فاجابتني بصوت راعني
وارتني الظبي ليثاً أغلبا
ان قومي استعذبوا ورد الردى
كيف تدعوني أن لا أشربا
أنا يابانية لا أنثني
عن مرادي أو أذوق العطبا
أنا ان لم أحسن الرمي ولم
تستطم كفاي تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضي حقهم
وأوامي في الوغى من نكبا

فيرجع بحسرة كظيمة ، ويتلمس في روحه وثباتها واندفاعاتها ؛ ولكنه لا يصيب ثم الا الخذلان ، وكان عوامل هذا الخذلان تخفى عنه هنيهة فيقول :

لا تلم كفي اذا السيف بنا
صح مني العزم والدهر أبى
رب ساع مبصر في سعيه
أخطأ النوفق فيما طلبا
ثم يزهد لحظة في متعيات الدنيا ومطالبها

أيه يا دنيا أعيسى أو فاسمى
لا أرى برقك الا خلبا
ولكنه يثوب الى وعيه ويذكر ضعف أمته فتلك فيها الادواء والعلل ، وانها سبب كل ذلك التخذلان الذى أصابه ، فيثور محنقاً :

أنا لولا أن لى من أمتى
خاذلا مات أشكو النوبا
لمة قد قذفت فى ساعدها
بغضها الاهل وحب الغربا
وهى والأحداث تستهدفها
تعشق اللهو وتهوى الطربا
لاتبالى لعب القوم بها
أم بها صرف الليالى لعبا

ومصر هذه يعذبه سكوتها . ويعصف بها سكونها الجمود . فالناس كلهم يغضبون لحقوقهم المسلوبة وكرامتهم المجروحة . فلم لا تغضب مصر هذه الغضبة ؟ لم لا تثور ؟ لم لا تتمرد ؟

غضب الناس من قبلنا
لسلب الحقوق ولم نغضب
امور تمر وعيش يمر
ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحا
ت فرار السليم من الاجرب

ولكن انى لهم ان يثوروا . وانى لهم أن ينتفضوا . وينفضوا حياة طليقة يغمرها النور وهم كما يقول :

وهذا يلوذ بقصر الامير
ويدعو الى ظله الارحب
وهذا يلوذ بقصر السفير
ويطنب فى ورده الاعذب
ويهضم فينا الامام الحكيـ
م ويكرم فينا الجهول الغبى

ولكنه يعرف أن مواطنيه مسالمون . لينو الطباع . وادعو القلوب . ولكن هذه المزايا النبيلة نفسها قد أغرت بهم الطغاة وأورثتهم الذل :

ان لين الطباع أورثنا الذ
ل واغرى بنا الجناة الطغاما

وماذا يفيد اللين . وماذا تفيد الوداعة فى عصر الحديد والنار . وعصر الجشع واستعباد الشعوب ؟

اسمعه اذن يئن أى انين فى حادثة دنشواى

ايها القائمون بالامر فينا
هل نسيتم ولاءنا والودادا
انما نحن والحمام سواء
لم تغادر اطواقنا الاجيادا
أحسنوا القتل ان ضننتم بعفو
قتلاً احسنوا القتل أن ضننتم بعفو
انفوسا اصبتموها ام جمادا
ليت شعرى اتلك محكمة التفـ
تيش عادت أم عهد نيرون عادا

أما هنا فان مصر كلها تتألم وتتأوه . وأية ريشة غمسها حافظ فى نقيع من دم الشهداء وصور بها ألم المصريين الفادح . بل أى رثاء هذا يرثى به العواطف الانسانية فى القلوب المتحجرة :

حسبوا النفوس من الجسم بديلة
فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد
وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا
بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا
بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه
بين الشفاه وطعمه لا يعذب

***

وبعد فأنت ترى أن حافظا يمثل تمثيلا تاما آلام مصر فى أعصب فترة تمر بها . وأحرج ظرف تعيش فى ظله . وانه استطاع أن يساهم بأوفر حظ فى بث الروح المتمرد الملتهب فى نفوس الشباب بان دل على مواطن الضعف ومكامن المرض . وأشار الى العناصر التى عاثت منغصة فى الذل وصورها تصويرا صادقا بحيث أتى النشء الجديد يحذر هذه العناصر الفاسدة كل الحذر ويعمل على سحقها وابادتها . ثم هو ما فتىء يضىء فى النور كل أعمال الارهاق والعسف الواقع على مصر والمصريين من الاجنبى المغتصب حتى بذر فى النفوس بذور النقمة تزداد يوما بعد يوم وتمهد الطريق الى حياة حرة طليقة يعمها النور وتدوى فى ارجائها اصداء القوة الدافعة المقتحمة

وقد شعر حافظ بقوة هذه اليقظة ولمس تلك الجهود التى تبذلها نفوس نهلت من فيض الالم الذى يفيض من اناجيه . وأحس أن هذه الجهود لن تستكين الا اذا بلغت غايتها وأدركت اغراضها فقال فى أروع قصيدة قرأتها له وهى رثاء الزعيم الخالد سعد زغلول :

ليت سعداً أقام حتى يرانا
كيف نعلى على الاساس القبابا
قد كشفنا بهديه كل خاف
وحسبنا لكل شىء حسابا
حجج المبطلين تمضى مراعا
مثلما تطلع الكؤوس الحبابا

ولكنه هو أيضا لم يقم حتى يرانا ، كيف نعلى على الاساس القبابا ؛ وهو أيضا ذهب ونحن أشد ما نكون حاجة الى روحه الثائر نستمد منه قوة للنضال ، ووهجاً نسترشد به فى تلك الاصقاع ، اصقاع الجهاد الذى ندلف فى مجاهله .

محمود سيف الدين
(فلسطين — يافا)
الايرانى

وليد الأمس

بقلم

الدكتور محمد حسين هيكل بك

ثمنه ١٥ قرشا

ويطلب من جميع المكاتب الشهيرة

حضرموت

تبكى شاعر النيل

أرسل حضرة الشريف العلوى السيد عبد الله بن احمد بن يحيى العلوى القصيدة الآتية تعزية من حضرموت فى حافظ

كيف يسلو الفؤاد من أشجانه ... وجرى الخطب ضارب بجرانه
عقل الحزن بسمط النثر والنظم ... وأودى بقلبه وجنانه
ومشى الكرب فى خفاء وهمس ... ينحز العظم والحشا بسنانه
التقت حلقتا البطان وناح الش ... عر وابيض فوده بلوانه
يا هول المصاب مات امام الش ... عر حامى لوائه فى زمانه
فبكته الآداب فى الشرق طرا ... من فلسطينه الى بابانه
قم بنا نحطم اليراع حدادا ... ونقد القريض من أوزانه
فالذى كان (حافظا) لعلاه ... قد قضى نحبه فمن لصيانه
ويح عرش القريض من يعتلى ... العرش أميراً ينوب عن صولجانه
ويح للشعر من يحوك معانيه ... ويكسيه من حلا أرجوانه
ويح للشعر من يدين قوافيه ... كدين الاسير طوع عنانه
ويح للحكمة الثمينة من يؤ ... ظم مرجان شعرها وجمانه
كان والله حارساً لغة الضا ... د وحامى البيان فى قرنه
كان موسوعة من الادب الرا ... قى لطيفا فى جده ولبانه
كان والله نعم من عرب القو ... ل ونعم المجيد فى ترجمانه
كان والله كاسمه (حافظ) الشعـ ... ـر من الانهيار من أركانه
لا يباريه فى المعانى مبار ... لا يوازيه شاعر فى رهانه
يستطيب اللسان والاذن ترتيـ ... ـل قوافيه أوسماع قيانه
نثره الدر أخجل ابن أياد ... وحى ذكره به سحبانه
عبقرى الخيال يسمو على الطيف ... رفائيل دونه بنانه
لبق بالكلام والشعر يجريه ... كجرى العتاق فى ميدانه

***

رحم الله (حافظاً) شاعر النيل ... وعز القريض فى سلطانه
قد بكاه البيان والشعر والحكـ ... ـمة مر البكاء بالبيـــانه 11
لم يخلف سوى نظام من الشعـ ... ـر بديع يختال جيد حسانه
لم يخلف سوى الفرائد ارثاً ... وتراث الاديب من عرفانه
يا له من ورائه كلما طا ... ل به عهده مضى الى عنوانه
لم يمت من له (ليالى سطيح) ... وله (البؤساء) من برهانه
لم يمت من له هنا وهناك الآ ... ـى عن فضله وعن احسانه
لو تسير الموتى لموت جليل ... لمشى ابن الحسين فى أكفانه

***

شاعر النيل مالشعرك مثل ... هزمنا الشعور فى ارسانه
شاعر النيل أن تغنى جرى النيـ ... ـل على شعره وفى خلجانه
هو خدن البيان للحق ظرف ... ممرح للخيال فى ألوانه
هو سحر محلل أين هاروت بشيطانه المريد وجانه ؟
مثل سائر وفى طيه الحكـ ... ـمة يبقى على ممر زمانه
لست أدرى وقد رفعت منار الشعر فوق السرير من ايوانه
يا ترى هل يفيك حقك أم يرتد عيا بقلبه ولسانه
يا حماة الاشعار هل من شعور ... خلد وافضله على اخوانه

***

واقيموا له المآتم دوما ... واندبوا الشعر فى نسيج بطانه
وأقدر والفضل قدره فاولو الفضل أحق الورى باكبار شانه
وعزاء مصر الفتاة عزاء ... لم يمت من نراه فى ديوانه
كلنا فى المصاب يا أمة النيل سواء ... نخوض فى أحزانه
فضعوا وردتين عنا على القبر شعار الولاء من خلاله
قد قرأنا عليه سبع مثانى ... ووهنا اليه من فرقانه
وبنو حضرموت تأخذ فى الحـــزن نصيباً أجل من أخدانه
ودست شعره دراسة حب ... فهو أستاذها بكل معانه
حزنت حزنا على والديها ... وأنين الحزين من تحنانه
نظمت دمعها سماطا من الشـــعر وشعر الموتور من أشجانه
ثم غنت به على وتر الحـــزن فسال الانين من عيدانه

عن الشبيبة العلوية الحضرمية بحضرموت

الحزين

للحق والتاريخ

حافظ ابراهيم

للاستاذ محمد شوكت التوني المحامي

— ١ —

تنفس الصباح . وطلعت على فم الكون ابتسامة واتصلت بشقائق النور يفيض من وراء الافق . وترنحت النسائم الرطبة الحنون . تتململ من بردتي الليل .

وأحاط النور والنسيم . وبسمات الفجر ذهبية راسية في النيل . تتلاعب حولها أمواج ذلك الاله المقدس في دين الاوائل ؛ وتبثها بنات الموج الاغاني العذبة اللطيفة . وهي ترقص حواليها وتتمسح بجدرانها .

وكانت الحركة لم تنقطع طوال الليل في تلك الذهبية . حركة يبدو عليها الرجل السامت والصمت الذي يتفاعل فيه اليأس والرجاء

وعند ذلك الفجر ارتفعت في داخل الذهبية أصوات متأملة حينا ثم سكتت تلك الاصوات وتمتم صوت وليد يغادر المحبس الاول الى المحبس الدنيوي ويحبو من على الغيب الى الدنيا قطعة من الامل واليأس . والسعادة والالم . والخوف والشجاعة ، والحب والكره ، والطمع والقنوع ، ومزيجا من الدمعة والابتسامة ... ووديعة في صدر المستقبل الغيب المكتوم .

تنسم الوليد أول نسمات الفجر النقي البريء . وتدفق النور الطاهر على جفونه المغمضة فاشعره بالضوء . وبانه ترك عالما الى عالم . وغيبا معلوما الى غيب مكتوم .

واعتقب الصمت المخوف الرهيب في « الذهبية » تعالى سيحات الفرح والسرور . ورنات الحناجر بالضحك والزغردة . واندفع النسوة الى الوالد يبشرنه بمولود سعيد

اما ذلك الوليد فقد كان « محمد حافظ » أما الوالد فهو « ابراهيم بك » باشمهندس قناطر دبروط . وأما الذهبية فقد كانت راسية في عام ١٨٧٢ بجوار دبروط حيث كانت تبنى قناطرها وكان يشرف على بنائها المرحوم ابراهيم بك والد محمد حافظ ابراهيم .

كان الوليد الطارق أمنية طال عليها الزمن في صدر المتمنى . فلقد كان ابواه محرومين من نسل تقر به عيونهما . وكان ذلك يبعث في نفسيهما الامى . وكان الامى يبعث التمنى والرجاء

فلما جاء « حافظ » — كامنية — عز وغلا وأشاع السرور في العائلة وفتح ابواب الامل في صدري والديه بعد أن كانت مغلقة محكمة الرتاج وأصبح هو أملا يعظم كلما امتد خيال ابويه يسبق عمره بعشرات السنين وكان اليوم يضخمه سنينا بالامل

وبعد عامين توفي الوالد عن ثروة يتركها عادة الثرى المتلاف الذي ينسيه الامل في المستقبل والرجاء في وجه الدنيا الحقيقة المرة التي يتكشف دائما عنها الموت للابناء والعائلة

وانتقل حافظ ووالدته الى دار خاله بالسيدة زينب بالقاهرة . ولا نعرف بالتحديد موقع تلك الدار عاما وان كان المرحوم كان يذكرها كرارا أنها في ربعة . وبعد قليل توفيت الوالدة وظل الطفل في كنف خاله . وقد تيتم من والديه قبل أن يسعد بحنانهما ويعتز بحبهما . وذاق مرارة اليتم قبل أن يتذوق عاطفة الابوة والامومة . فاذا به يبتدئ حياته بذوق أمر مايذاق . ويحرم من الذ مايتناول . وأشهى مايطعم . كبر وتفتحت معرفته على يتم . وعلى فقد والديه . ودرج على أمى ذلك اليتم وآلام ذله . وكسوف باله .

ويظهر أن لذلك اليتم المبكر أثراً في تكوين شخصية حافظ الدفينة الحزينة . فلقد كان حافظ في قرارة نفسه كما سنبين بعد حزينا . فكان اذا خلا الى نفسه أو الى صديق ظهرت خفايا نفسه . واذا قال الشعر كان عليه مسحة كبيرة من ذلك الحزن الدفين . ولذلك خلا شعره من الفكاهة وخفة الروح التي عرف بها المرحوم الفقيد في المجالس والسوامر ..

ودخل المدرسة الابتدائية ثم التجهيزية وبعد ذلك التحق بالمدرسة الحربية . وذلك لسببين الاول اختصاراً لحياة التعليم . توفيراً لمال خاله . واسراعاً منه لتخفيف الحمل عن ذلك الخال الكريم . ثم استباقا الى الكسب حيث كان لايملك لنفسه مالا يستعيض به لو مات خاله أو حصلت بينهما نفرة . . . الخ

وأما السبب الثاني فقد كان الاستعداد الجسماني للمغفور له فقد كان طويلا . مديد القامة . متين البناء . فكان كل من يراه يقول انه لايصلح الا « للحربية »

وعند ماتخرج في مدرسة الحربية أرسل ضابطا بالجيش المصري الى السودان . وهناك بقي مدة سبع سنوات على ماأظن أو أقل

كان من المنتظر أن لاتسهوى هذه الحياة نفس حافظ . وكان من المرتقب ان يودعها . أو يتركها أو يخلع منها بشكل من الاشكال

لقد كان حافظ شاعرا وشابا . تجيش نفسه الشاعرة بانفعالات اسمى من التي توحي بها الحياة العسكرية وكانت تتفاعل في خياله صور غير التي قد ترسم خطوطها حياة المعسكرات ومناظر السيوف والحراب والبنادق وأصوات الرصاص ومرائي الدماء والاشلاء

قد تكون الحياة العسكرية من أقوى مايبعث في النفس عوامل الشرف والزهو ولكنها أبعد ماتتوافق ومزاج شاعر شاب

الشاعر انسان ممتاز . ولعل أميز مايمتاز به رقة شعوره . واتصاله باحساسه الدقيق بآلام الانسانية وتفجر ينابيع الرثاء في قلبه لمصائبها وفواجعها . واستبداد ذهنه وتفكيره بالجموح الى غاية اسعاد تلك الانسانية التي وجد ليرفه عنها . ويقودها الى عالم بعيد من السمو . ويطير بها قدما على اجنحة قوافيه الى عالم المثل العليا

فكيف يطيق رائي الانسانية . وعصبها الحساس وعينها الباكية . ودمعها المنسجم الحنون وجناحها الطائر الى المثل الاعلا ان يعيش في وسط نكباتها وفي محيط من دمها المهراق . وفي جو يملؤه انينها الصارخ من ظلم الانسان لاخيه الانسان وحشرجة اشد ابنائها بؤسا . وفي هيكل يتكوم في كل شبر من أرض على معاني الفناء شلو من عضو انساني ؟ كيف يحتمل الشاعر أن يعيش في نكبة الانسانية . ومجزرة البشرية . خنجراً يقد في أحشائها . وسيفا مسلولا يذبح أبناءها . فيبعث آلامها ؟ وشيطانا يضحك في وسط أعاصيرها ونوائها وينسى نفسه ويتناسى فنه . وينيب مادة حسه في مادة عيشه . ويفنى شخصيته في ذلك العلم المسلوب المنهوب

لم يكن من الانسجام في شيء أن يعيش شاعر (على العموم) جنديا . يحمل السيف ويذبح ويقتل . ويضيف ألما الى آلام الانسانية . ويشق جرحا في قلبها الدامي

ولم يكن من التوافق في شيء أن يكون حافظ شاعر الانسانية والباكي لكل مصاب من مصائبها ولو بعدت به حدود الجغرافيا الى المجاهل وأقصى الممالك ؟

ولذا فقد كان كما ذلنا من المرتقب . والمنطق ان يقذف الشاعر بالسيف من يده . وينزع نفسه من طاعة الواجب المزعوم . ويطوي عينيه عن الدم المهراق . والاجسام المبعثرة الاشلاء . ويجري بعيداً عن ميدان التناحر والانين . ومجازر الانسان باخيه الانسان في سبيل اطماع مادية هي أبعد الابعاد عن نفس الشاعر . وهي ألد الاعداء لقلب الفنان ..

أضف الى ذلك سبباً آخر ان حياة الشاعر عامة — وحافظ خاصة — لاتطيق حياة الصرامة تلك التي يعيش فيها الجند . تلك الحياة الجافة التي لاتسترسل اليها نفس الشاعر التي تود أن ترى ينبوع الطبيعة . وجمال الكون . وحلاوة الدنيا . والعوالم الناعمة التي تبعث الراحة والطمأنينة للنفس الشاعرة وتوحي بالفن والجمال وتتوافق مع مافي نفس الشاعر من شعور بقداسة الخالق المبدع لما يشاء . وتقدير للجمال وتمازج مع الحنين العميق الذي ينبعث من اعماقه . فيرقق كل ماصلب وقسا في هذه الحياة

ولقد كان يحدثنا المرحوم عن مرارة ذلك العهد . ويمثل لنا « بطابور » الصباح الذي يبتدئ قبل شروق الشمس بساعات . حتى اذا ما أرسلت الشمس أول خيط من خيوطها أحس الضباط والجند بأن قطعا من الحديد المحمى تتمرغ على وجوههم !

فتصور الشمس تبعث الشقوة والالم للشاعر الذي خلق لينظم فيها آية التمجيد والاجلال ! والذي طالما عبد زملاؤه فيها القوة والعظمة والفيض بالحياة للكائنات ...

.. والى تلك الاسباب التي كان من المنتظر ان لاتجمل شاعرنا يستمر على هذه الحياة سبب آخر قوي . ذلك ان حافظا كان بحكم شبابه . وكرم نفسه وعظم قلبه . وتوازع الخير عنده ، محبا لوطنه : مغرقا في ذلك الحب ؛ كما انه كان بحكم شاعريته الحساسة يتألم كل الالم ان يرى ذلك الوطن المحبوب معذبا تنتابه النوب ، وتزخر به الكروب ، وتدنمه الى الفناء محن قاسية ، فكان من الطبيعي ان يتألم وان يكون لهذا الالم مظاهر خارجية ؛ وقد ظهرت تلك المظاهر وشاعت فتصادمت على رغبات وخطط المستعمرين وهم المهيمنون على الجيش وعلى مصر بأكملها . وكان لهذا التصادم أثره المعروف

كل هذه الاسباب قذفت بحافظ (بعد سبب مباشر معروف للقراء وقد يذكره بعض الذين يكتبون عنه في هذا العدد من السياسة) الى مصر ثانية ؛ فرجع اليها رجوع الشاعر الشارد من الجحيم الى هيكل الواجب . يركع عند مذبحه وتعاوجهته لمذراء ذلك الحق وهي تعلو سماء الهيكل وتنطلق من فمه فيض صلاته الشعرية المخارجة من أعماق نفسه تلك الاعماق المقدسة التي تتولد وتعيش فيها العواطف اسمى ماتنطوي عليه انسانية المخلوق البشري

— ٣ —

رجع حافظ الى مصر . وكان قد سبقه اليها فضله ، وتضوع قبل مثوله عن ذكره . وطافت بالاذواق قبل حضوره نفحات فنه . وشاعت في سماء عبقريته .

فكان منذ قدم موضع الرعاية والصداقة من كثيرين من رجالات مصر . ولعلنا ندرك من هذا أن حافظا كان عظيما منذ أول مراقبة سنى الحياة . وانه لم يتطور في حياته الى أن صار عظيما : وانما كان كسكل العظماء والعبقريين . مختاراً . لم تصنعه الحياة . ولم تخلقه الظروف . أو تكيفه الحوادث . وتنضجه المحن والصروف ...

ولقد شرع حافظ شباة قلمه منذ خلى ميدان الحرب واندمج في ميدان السلم الجريح . وقد ألقى السيف . وحمل القلم — مناضلا . مدافعا عن وطنه . مذيباً على الشباة الدقيقة دمه وعصبه ، وعبقريته ، فلم يغمده حتى اغتمده القبر ؛ ولف السكفن الابدي على كليهما . .

— ٤ —

عهده بالادب

يولد الفنان الموهوب فيثارة تتغنى ولو لم توهب الاوتار والعازف ، كما تتغنى القصبة المجوفة في الغابة المهجورة ، وهي لو أنها اقتطعت وهذبت وتناولها عازف صناع للنغم ؛ خلاق للالحان ، لأحالها عوداً من « الناي » يخرج أخلد الاصوات ، ولكنها مع كونها قد هجرت في الغابة الموحشة لاتصمت عن بعث فنها في ربعها المهجور .

وكالنسيم اليتيم الذي يجيء الى الصفصافة المنفردة وهو مفقود الاصل والنسب لم تهيء له آلهة الموسيقى خزائن الفن في صدره ، فاذا غمر أغصان الصفصافة وشجته بألمها المتسكب في صمتها ونعاسها ؛ تغنى وغنى لها أناشيد الحب والعزاء ...

كذلك يولد الشاعر اذا تعلم . وتثقف تضوع عبق فنه . ومملأ العالم نشيداً وحكمة . واذا أهمل في قرية من القرى فلاحا جاهلا أو ترك في الصحراء الجرداء بدويا جائعا عاريا . أو تلقفته به في مصنع من مصانع المدن الخفيرة عاملا ضئيل القيمة والاجر . لم يصمت في هيكله ذلك الطائر المترنم . ولكنه ينطلق بشعره الساذج الذي يمثل مدى ثقافته ومدى الايحاء الذي ينزل اليه من الوسط الطبيعي الذي يعيش فيه . كما انه يمثل الطاقة الكامنة الحية التي لاتموت في الجسم مهما قست على ذلك الجسم مطامح الحياة ويمثل زهرا الجبرية الذي يختلف ويتشكل بمقدار مايصيبه من الشمس والهواء ...

ولقد ولد حافظ شاعرا وبكيفيته انسانا ولم يكن يعنيه شئ في الحياة أن يكون ذلك الشاعر. لانه قطعة من الانسانية مصنوعة منذ الأزل لتكون قطعة من فن الانسانية. ولكن أيمكن أن نورد اسبابا ساعدته لكي يصبح ذلك الشاعر النابغ الذي ملأ سمع الدنيا والخلود اناشيده. وملأ بصر الحياتين الباقية والفانية بمرائي خياله وصور فنه وعرائس شعره ؟

لعلني أبدأ بالخيال فأتصور ذلك الصبي اليتيم وقد رجع من مدرسته فرأى المنزل خلوا من والديه. وحنانهما، وما يبعث وجودهما من نسيان للحياة وعدم تفكير في أي شأن من شئونها، ومن شعور بالاطمئنان الى غدرها ولو كان الانسان بين نابيها اللذين يوشكا أن يتقابلا فيطحناه عند تلاقيهما

فانفرد بنفسه. يترك آلامها تنضج العبقرية الكامنة فيه. وتزكي النبوغ النابت في حنايا ضلوعه. وتنفسح عقله

وانفرد بالكتب يردد ما في صفحاتها. وأي شئ أبعث للعزاء والتسرية من الكتب. خزائن العقل الانساني، وموارد كل خواطره ونزعاته.

وماذا تظن يستهوي تلك النفس الحزينة غير الشعر. حيث يجد العزاء في قصائده تلك الدموع الانسانية الخالدة. وماذا يرقأ دمعة المحزون المنسجمة غير دمعة انسانية منسكبة جافة على صفحة كتاب تحمل عناصر الالم والعزاء ومجالي اليأس والرجاء ؟..

وفق الفتى الى تسيير خلوته وتحبي وحدته فعرف الشعر وانصرف اليه وخلى يديه من أي علم سواه. واستعذب أغاني الشاديين الخالدين الصامتين. وشجته تلك الاعواد الساكنة، تبعث له ألحان الاسى وغاريد القلوب الخفوق ولعلني أتخيله بعد أن اندمج في ذلك الالم الشعري وقد تحرك الحنين في صدره ورفعت نواعس عبقريته جفونها على أنغام الاسى والالم فتيقظت. قد فاض بالشعر ونفس عن حزنه المكتوم بحزن غير مكتوم ...

فعلى نيران الاسى انصهرت تلك النفس العظيمة وسالت شعرا ونضج نبوغه وتأرجت عبقريته فشاع أريجها في السكون المنصت لاغاني الشعراء وأمسك ذلك الشاعر قيثارته، وقد هيئت له منذ الازل في صدره وانطلق يغنيه والعالم يرهف السمع..

فلم يصمت بعد ذلك حتى تلاشى غناؤه في الصمت الابدي. وفنيت أمواج صوته في وحشة القبر. وتحلل النغم سكونا في جبروت تلك الوحشة الناسية. ولكن ألحانه القوية التي أخرجها للانسانية في هذا العالم الفاني قد اكتسبت معاني البقاء والخلود فهي باقية كالخلود في عالم الفناء، أبقى على الزمن من البقاء وأثبت خلودا من الخلود

الشاعر يموت لانه انسان، وشعره يبقى لانه نفحات قدسية من الملأ الاعلا الساقي الذي لا يموت

وينحل الشاعر في التراب ذرات من التراب ويسمو شعره الى السماء لان له اسبابا تربطه بالسماء ووشائج مصاهرة ومربى

— ٥ —

بؤسه

يتحدث كل متحدث عن حافظ عن بؤسه ويقرن كل متكلم حافظا بالبؤس. حتى أصبحت كلمة البؤس وحافظا مترادفين. والقرين متلازمين. ولفظين لمعنى واحد. يمكن أن يستغنى عن أحدهما بالآخر في موضع الذكر. وهما لا ينفصلان.

ولعل من اسباب ذلك ان حافظا لم يكن له مورد رزق ثابت فكان حينما تمتلئ كفه بالمال وفي احيان تصفر منه وتعطل من حلاه.

وانه كان اديبا وشاعرا فنانا. وصفه الشاعرية وحرفته الادب. يلازمهما على الدوام منذ الازل الى الآن. وفي كل بلد وصقع صفة البؤس والاملاق.

وانه ترجم البؤساء لهيجو. وكتب في مقدمتها ان صاحبها كتبها وهو بائس ومترجمها ترجمها وهو بائس فجاء والترجمة كالعروس وخيالها في المرآة ... وانه اكثر من شكوى الزمان وبؤسه وآلامه ونحسه

وهي اسباب لو تمهدت لقارون لقيل عنه انه بائس. او لرو كفلر لذكر بؤسه بالاسى والاسف

ولكن هل كان حافظ بائسا بمعنى الفقر من المال والاملاق والجوع ؟ انه لوهم وخلط ان يحسب ذلك في مواضع اليقين. وانه لسخافة من فكر يجول فيه ذلك الخاطر

وانه الى ذلك احتقار للشعر باعتباره فنا انسانيا مهذبا ساميا. علا عن اطماع المادة. وبعد عن اطماع الحياة. ومتاع الدنيا. وعروضها ان يوضع امر بؤسه وجده ونحسه وسعده في ذلك الميزان الحقير. فتقدر المعاني العلوية بما تقدر به لتبات العيش التي تملأ المعدة لتنحل الى أقذر ما في الوجود !

ان الفنان لا يعيش لبطنه. ولا يحسب حساب معدته. ولا يقيس حظه في الحياة بجوعه وشبعه وظمئه وريه. ولكنه يعيش لفنه. ويحسب حساب عقله وقلبه وخياله. ويقيس حظه بما أفاض وانتج وبما تحقق من اماله وصور أمثلته العليا

ولئن كانت في العالم طائفة من أهله تحتقر « المال » وتزدري به وتغمض جفونها عن طلابه وتأبى ان تركع له. وتدين له بالعبودية وتضعه من عبوديتها في مقام الربوبية. فان تكون غير طائفة الفنانين..

والادلة على ذلك انك لا تجد فنانا يبقى على مال في يديه. وهل هناك ابعد في الدلالة على الاحتقار من ترك الشئ ونبذه والتفريط فيه؟

وانك لا تجد فنانا اقتنى الدور والعقار وكنز الفضة والنضار. وجمع الثروة واقام نفسه على حراستها فكلهم ملتفون. يعيشون فقراء ويموتون كذلك ...

والا لو كانت حياة الفنان تقاس عظمتها وازدهارها بالشيع والرى وامتلاء اليد بالمال لما كان هناك انتاج فني. ولما وجدنا بين ايدينا هذا التراث العظيم الهائل من الفن.. فلقد كان كل الفنانين فقراء فلو كان بؤسهم في جوعهم لما كتبوا ونظموا او صوروا او تغنوا. ولكان جوعهم الهائم عن الفن. وشغلهم السعي وراء لقمة العيش عن الانتاج الجائع

وعلى ذلك فان بؤس حافظ لم يكن بؤس جوع وعرى وظمأ وحاجة الى المال ولكنه بؤس النفس الحزينة التي تقصفت فيها الآمال وعطشت فيها الاماني. بؤس القلب الذي تيتمت فيه العواطف. وتكسرت فيه النصال على النصال بؤس الروح التي خطيت مثلا أعلاها. واغلت له المهر. فلم تنل من تحقيقه أربا. بؤس الشاعر الانساني يتفطر ويبكي لمصاب الانسانية المتجدد على تجدد الايام والليالي. بؤس المصري يجد وطنه يتا كل مجده. وتنحل أخلاقه. وتغزو جيوش الجهل الضالة فيه جيوش العلم فتقهرها وتريها. وتتحرش بعظمته عوامل الموت والفناء وهو لا يملك لكل هذا دفعا ولا منعا. ويجد شعره كالقتيل في معركة حامية تهشمه وهو على الارض ملقى سنابك الخيل الغارة. وسنابك الاخرى المنتصرة..

هذا بؤس حافظ. بؤس نفساني. روحاني وليس بؤس المادة. والحاجة والطمع.

لقد كان يقع لحافظ المائة والالف من الجنيهات فلا يعرف بات وهي في جيبه أم باتت في خزائن غيره.

لقد كسب حافظ من تواليفه وكتبه مالا غزيراً وفيراً. فهل أغناه هذا المال عن التحدث عن بؤسه. وهل أسكته عن بكاء ذلك البؤس ؟ فكيف اذن نوفق بين وجود المال ووجود البؤس من الفقر ؟

ان (القمري) قد يكون بين الغياض والرياض وما اعتل من النسيم. وصح من جمال الطبيعة. ومع ذلك لا يفتك يشكو الوجع. ويرثي المجهول من الامه. ويحن حنين الاسوان الجريح ... وكذلك الشاعر. وكذلك كان حافظ..

(٦)

اخلاقه

كان حافظ « مجموعة » من الاخلاق. وكانت هذه المجموعة حافلة بشتى الالوان فياضة بينابيع متفجرة تختلف مجرى ونوعا وذوقا

ذلك لانه كان شاعراً وكان يمثل الفنان في حياته وأخلاقه أصدق تمثيل. واخلاق الشاعر كما نعرف لا تحد. ولا يضيق عليها حصار التحديد. فهي مطلقة من كل قيد. خارجة عن كل حصار. منطلقة من كل غل. متوثبة على كل سد.

قد يكون لكل مهنة ما يميز أخلاق صاحبها الا مهنة الفنان. فلا يميز أخلاقها لانها تجمع كل شئ. ذلك لان الفنان صورة مختزلة انسانية من الحياة — الحياة الواقعة. أو تلك التي تصور مثلا أعلا — والحياة مسرح لما اجتمع عليه ابناؤها من معاني « الاخلاق »

وقد كان حافظ كما قلنا يمثل الفنان اصدق تمثيل. ولذلك كان حراً من كل قيد متمردا على كل تقليد. نازعا من كل غل. نازعا الى الانطلاق في جو يذيب احاديث القيد والملام. رغب اليه (الزعيم الخالد) ان يبقى الى جانبه بمساتين بركات وكان للبقائه بجانب سعد تقاليد يجب مراعاتها تقديرا لتلك الشخصية العظيمة. ولكن ماذا يفعل حافظ والحرية في دمه والثورة على التقاليد من عناصر وجوده ؟ لم يكن منه الا ان اشترط لبقاءه ان يسمح له بأن يبقى طول يومه (بالبيجاما) فلما اذن له سعد بذلك قبل البقاء ! وفي حياة حافظ الآف الامثل على ذلك.

***

كان حافظ شجاعا يحابه الحياة والناس بالصبر والصراحة. ويعتقد ان من اهم معاني الشجاعة الصبر على المكاره.

وكان يعامل الناس معاملة واحدة لا فرق لديه بين عظيم او غير عظيم. غريب او صديق. يقول ما يريد أن يقول. لا يناقق ولا يداجي. وكان دائما يردد هذه الجملة (الايام الباقية من عمري لا تحتمل النفاق)

وكان يقول أيضاً « ماذا يخيفني أن أقول الحق في وجه من أريد أن يدمنه الحق. ليس عندي رغبة في شئ ولا خوف من أحد » متمثلا بقول نيكور ni crainte, ni desir هيجو — ولن أفقد شيئا اذا ما لذني عظيم أو ذو جاه. ليس عندي عقار تنزع ملكيته. ولا سيادة أضطر لبيعها ثم أسير على قدمي. ولا ولد أرغب في اعتلائه. أو أخاف من الحمان الأذى به » !

على أن الواقع انه لم يكن صريحا الى حد الجفوة والغلظة بل اني لاحظت عليه أنه كان رقيقا ولطالما امتنع أن يجرح انسانا في عزته أو كرامته لو كان مفقود العزة ظنين الكرامة أو يناله بكلمة. ولطالما كان يجامل الناس ويرفق بهم. ولا يجابههم بعيوبهم. متأثرا بنزعة الانسانية المتألمة

وكان كريما متلافا. وهذا امر فه عنه الناس أجمعون. ولا حاجة للبحث فيه. فان البحث فيه أدعى الى تجهيله

ولعلني لو أردت أن أحصي آثار كرمه لاحتجت — بدون مبالغة — الى تصنيف كتاب ضخم.

وانما حسبي للذكرى أن أشير الى مواقفه التي كانت تقدم لمدعويه. وكيف كانت تحفل بألوان الاطعمة التي كان يبالغ في مقدارها وعددها. مهما كان عدد المدعوين

***

وكان رحمه الله طيب القلب. في قدرة كل انسان أن يخدعه من ناحية استغلال طيبة قلبه الكريم. كان اللافظ الباكي أو المسؤول ينال من نفسه أضعاف ما يدر صاحبه. وكان يثق بمحدثه ثقة عجيبة، لعلها صدى لما في نفسه من كرم أخلاق وصفاء نية. وكان وفي الصحبة وفاء من الحتم أن يبقى مضرب المثل الى ما يشاء الله

كان يدافع عن « سعد » دفاعا مخلصا في كل مكان وفي أي مناسبة في حياته وبعد موته. وكان في أيام الخصام العنيف بين الوفد ووزارة دولة محمد محمود باشا وقد كان هو صفي دولة الباشا. لا يمكن أن يذكر الاستاذ الكبير محمود فهمي النقراشي والبنان بك وفتح الله باشا بركات وغيرهم من رجال الوفد الا بكل خير ومدح وثناء. لانهم أصدقاؤه

وكان يخلص لدولة محمد باشا محمود اخلاصا لا حد له. ويشيد بذكره اشادة تعدت شخص دولته الى أفراد عائلته بل الى كل من ينتمي اليهم. وكذلك كان حاله مع الاستاذ الاكبر فضيلة الشيخ المراغي وآل عبد الرازق وسوالم من اصدقائه

وكان الى ذلك كله أبي النفس عالي العزة. لايرضى الذل. ولا يقيم على ضيم. واماني لست في حاجة الى الحديث عن بشاشته وخفة روحه. وحلاوة دعابته. فهذه مسألة لم يعد انسان في الشرق العربي يجهل أمرها. لقد كانت نكتته تشيع في كل مكان. ويتسابق الى ترديدها الناس من محفل الى محفل. ومن سامر الى سامر.

وحسبه انه كان أحد ثلاثة او اربعة في قرن مذكورون في معرض الزعامة على اهل الفكاهة.

خفة الروح

(٧)

أدبه

أدب حافظ من أعلا ماعرفته العربية. ومن أغلا ذخائرها. وأثمن كنوزها

حسبه أن يكون ترك ديوان شعره. وترجمة البؤساء وليالي سطيح. وترجمة كتاب الاقتصاد السياسي ليكون قد زاحم بمنكبيه فيالق أدباء العربية الخالدين فنزل في الصدر منهم

ولكن ليس الذي عددنا من آثاره هو كل آثاره. فان لحافظ أثراً أو كتابا اعظم مما ذكرنا. ذلك هو كتاب أدبه الذي لم تسطره يده. ولكن كان يقرأه لسانه في المجالس والسوامر والنوادي كتاب ثمين. زاخر بالفنون والآداب والملح والفلسفة

وياحبذا لو كتب كل صديق لحافظ مايرويه من قوله وأحاديثه وأرسله للجنة «أصدقاء حافظ» لتخرج به كتابا كالذي أخرجه «جاز جاك بيروسون» عن أناتول فرانس بعد وفاته وكان انعقيد أيضا قد عزم قبل وفاته بمدة أن يخرج كتابا بعنوان «الاخلاق» وكان يجمع مواده ويهيء موضوعه: وحدة طويلا عنه. وكان يريد أن يدرس فيه أخلاق مصر من «أمثالها وحكمها وأغانيها وأواويلها وأزجالها» وكان يريد أن يدعو فيه بعد ذلك الدرس الى مايجب أن تكون عليه أمة ناهضة من الاخلاق. ولكن المنية عاجلته ففجعت الادب والعلم في هذا الكتاب النفيس.

نثره

لم تتغلب شاعرية حافظ على طبعه فنثر كما شعر. وتمكن اذ يخضع الشعر لاحكامه وأوزانه أن ينطلق في الوقت عينه والنثر كما يشاء

وان جمع الاديب بين النبوغ في الشعر والنثر لآية من آيات عظمته واعلاء مجده.

وكما ترك حافظ ثروة من الشعر العالي. ترك ثروة من النثر الفني السامي الذي سيظل أنموذجا للبلاغة العربية في عصر من عصورها.

ولسنا مستطيعين التمثيل بقطع من نثره. فليرجع الى ليالي سطيح والبؤساء من أساه الى نفسه فلم يرجع اليها الى الآن.

ولكن الذي نلاحظه من «ليالي سطيح» أن أسلوبه لايشابه الاساليب التي كانت تكتب بها الكتب. وتسطر بها المقالات على عهده: من حيث التكلف في اللغة. والاسراف في الاتيان بغريبها. والاغراق في الجري وراء التشبيه البعيد. والمجاز الخفي. والتعمل في رص — أو وصف — الاسجاع المصنوعة صنعاً كأحجار الطاحون!

ومن يرى أسلوب ليالي سطيح مقارنا الى أساليب ذلك العصر. ليدرك بسهولة أن حافظاً على عهده كان مجدداً. وأنه خلق فناً في الشعر جديداً. تتلمذ عليه جيل بأكمله.

أما ترجمته البؤساء فلن نبلغ في الحديث عنها ما بلغ ادباء العصر الماضي والحاضر من التقدير:

وانما ما نلاحظه على أساس دراستنا للرواية في الفرنسية والانجليزية والعربية. هو أن حافظا قد أسدى الى اللغة العربية درة ثمينة من الادب العظيم الخالد بترجمته الفائقة كما أنه أسدى الى «هيجو» يداً باتقان الترجمة اتقانا لا يقتصر على الامانة في النقل وانما يتعدى الى الباس معاني هيجو أثوابا رائعة. فخمة من اللفظ العربي. واضافة كثير من الاخيلة والتشبيهات والمعاني الى الاصل... ولاتثريب في ذلك عليه فالادب يطلب لذاته. لا بأصله أو بحديث مؤلفه.

وقد نفرد فصلا للمقابلة بين ترجمة حافظ وأصل بؤساء هيجو في فرصة أخرى.

***

شعره

سيتحدث في هذا العدد كثير من فضلاء الادباء والنقاد عن شعر حافظ ولكني ألمسه من نواحي أخرى. هي خطرات يسمح بها ضيق المجال.

تشاؤمه

أول ما يلاحظ على شعر حافظ روح التشاؤم والالم البادية عليه.

وللادب المتشائم مساوىء عدة في مذهبي. وله فائدة واحدة.

أما مساوئه فمنها بعث روح التشاؤم والالم في نفوس القراء. وعدم تصوير مثل عليا لهم لكي ينهجوا على منهاجها ويسيروا على مذهبها. ويتأثروا بوحيها

وأما فائدته الوحيدة فهي خلق التبرم بالحياة الراهنة وعدم الرضا باستبدادها والنزوع من ذلك الى طلب تغييرها

وأدبنا كله متشائم. باك حزين. منذ آن طويل الى الآن. فكل انتاج أدبائنا الكبار عليه مسحة الالم. وقد تأثر من ذلك جيل الادباء الناشئين فكلهم متباك. شاك. حزين في كتابته

وحتى أغانينا كلها حزينة كذلك ولذلك أسباب عدة لعل أهمها ما تتابع على البلاد من ولاة مستبدين ظلمة. وما انتهى اليه أمرها من استبداد المحتلين بها واذلالهم لها. والادب والموسيقى صدى لعواطف النفس الانسانية دائماً

وعلى ذلك فادب حافظ الشاكي الباكي المتشائم يمثل عصره. ويعتبر صورة من احساس ذلك العصر وقطعة منظومة من شعوره. واتجاه عواطفه وخلقه.

تاريخ مصر

وشعر حافظ يروى لك تاريخ مصر في الاربعين سنة الاخيرة. بحيث انك لو قرأته لعرفت منه الاحتلال. ووعود المحتلين. وقيام الحركة الوطنية على يد الحزب الوطني وزعيمه الشاب. وحوادث الاجرام منهم كحادثة دنشواي. ومواقف الوطنيين والمطالبة بالدستور من العهد الاول. بل عرفت تاريخ الحياة الاجتماعية. ففي قصيدته «لزوجية» تقرأ ذلك العصر من حيث السياسة والاجتماع فكأنك ابن ذلك العصر وماثل فيه.

وتقرأ مصائب الامتيازات. ومصائب البورصة التجارية. وعواطف مصر نحو بنيها المخلصين في حوادث معينة كحادثة اعتلاء سعد باشا الوزارة لاول مرة. ثم حال مصر في أيام الحرب. وأيام الثورة الكبرى. ومظاهرات السيدات فيها والدستور والمفاوضات والائتلاف ثم وفاة سعد الى قصائده الاخيرة عن الانقلاب الدستوري الاخير وهي معروفة مشهورة الا القصيدة العظيمة التي لم تنشر بعد.

ومن يرجع الى ديوانه ثم الى قصائده التي لم يحوها الديوان ونشرتها الصحف يجد ذلك التاريخ مفصلا فيها لم يحفظ على ذلك هو أول شاعر سياسي في الامة العربية.

حقيقة قد سبقه منذ العصر الاموي شعراء تحدثوا في شعرهم عن السياسة ولكنهم لم يوفقوا الى اجمال تاريخ الامة في عصر من عصورها في الشعر كما وفق هو.

ولعل مما يذكر بالفخر له أيضا انه لم يقف خصما للحركة الوطنية مطلقا بل انه لم يتوان أو يتخاذل في عصر من عصورها أو مناسبة من مناسباتها.

عبت عليه مرة انه لم يغذ ثورة ١٩١٩ بشعره. فعد لي عشرات القصائد والاناشيد التي كان ينظمها حينذاك وكان طلبة المدارس العالية يقصدون داره بالجيزة خفية ليتلقوها منه ثم يتغنوا بها.

وكان حافظ في شعره الوطني مخلصا لانه مصري صميم لم يخالطه الدم التركي. ولعلك تحس ذلك الاخلاص لهبا في كل بيت من قصائده.

وكفاه مجداً. وفخراً. وسبباً من أسباب خلوده. انه وقف شعره على الامة المصرية. ولم يتزاحم به على أبواب تركيا أو سواها.

وانه ظل يحث الشباب بقصائده حتى كان شعره عاملا من أهم العوامل في قيام الثورة المصرية الكبرى

فهو بلا نزاع. ولا منازع شاعر الوطنية المصرية. وشاعر الحركة الاستقلالية. وشاعر الدستور. ويكفيه انه مات وهو في ساحة الجهاد ينظم القصائد الخالدة. تفيض بالوطنية المخلصة المهيبة. وانه ودع الدنيا وداع الجندي يموت في حومة الوغى وسلاحه في يده لم يتكسر أو ينقصف

شاعر الشرق

على أن وطنيته المصرية لم تمنعه من أن ينظم حنينه للشرق وبلاد الشرق فلقد كان أول من حدا تآلف الشام ومصر في قصيدته (لمصر أم لربوع الشام تنتسب) ثم في قصيدته عند زيارته للبنان منذ عامين. وغيرها عشرات القصائد في مناسباتها وكان كلما نزلت كارثة ببلد من بلاد الشرق بكى له كما فرح اذا نال آخر من السعد نصيبا (انظر قصيدته غادة اليابان. وحرب اليابان. وضرب الاسطول الايطالي لبيروت... الخ)

شاعر الانسانية

على أنه الى ذلك كله شاعر تفيض روحه باعذب الالحان الانسانية ويهتز فنه بأسمى آلامها. وبهمه أمر مصر. وأمر الشرق. كما تهمه الانسانية جمعاء فهو قمريها الباكي. وهزارها الذي يملأ الجو أنينا من آلام جراحها الناغرة. ويقطع الدمع الحانا على نكبتها النكباء وما تفعله فيها البرحاء.

تجده يبكي في قصيدته (حرب اليابان) ماخلفته في جسم الانسانية تلك المجازر البشرية ويهاجم الحروب وينعى من يثيرها. ويبين ان تطرح تلك الازهار الانسانية شفاء لجزازات شخصية بين ملك وملك أو اشباع لشهوات أنانية دنيئة في نفس زعيم أو قائد.

فقد قال فيها:

وهذه جند أطاعوا هوى
أربابهم أم نعم تنحر

شه ما أقسى قلوب الالى
قاموا بامر الملك واستأثروا

وغرهم في الدهر سلطانهم
فأمعنوا في الارض واستمرروا

قد أقسم البيض بصلبانهم
لايرجعون الموت أو ينصروا

واقسم الصفر بأوثانهم
لايغمدون السيف أو يظفروا

فسادت الارض بأوتادها
حين التقى الابيض والاصفر

وأثملتها خمرة من دم
يلهو بها الميكادو والقيصر

وانها لقصيدة كان يكفي أن تكون وحدها كل ماخلف من أثر حتى يكون أهلا أن يخلد شاعراً عالميا ممجد الذكر

ان تاجور لم تذع شهرته الا لمثل هذه الروح الانسانية التي ينزلها أبيات شعره وان كان حافظ يمتاز على تاجور انه لم ينس نصيب وطنه المعذب كما نسي تاجور فانضم الى صف الانجليز في طغيانهم.

ومن عجب لهذه النفس الانسانية العظيمة أنها عاشت في الحرب. وكانت نفس جندي من جنودها ومع ذلك فهي تحمل عليها حملات صادقات لحمتها العاطفة الانسانية النبيلة، وسداها الاخلاص للسلام الانساني. ولم تتعثر يوما بمديح السيف والحرب كما يفعل كثير من شعراء مصر!

وتظهر هذه الروح الانسانية السامية ايضا في كثير من شعر حافظ كالذي قاله بمناسبة حريق ميت غمر وأوله

(سائل الليل عنهمو والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى

كيف أمسى رضيعهم فقد الام
وكيف اصطلى مع القوم نارا

كيف طاح العجوز تحت جدار
يتداعى وأسقف تتجارى

رب ان القضاء أنحى عليهم
فاكشف الكرب واحجب الاقدارا

ومر النار أن تكف أذاها
ومر الغيث أن يسيل انهارا

هذا شعر علوي السمات. روحي الطيب

يكاد يكون أوضح مثال حي النفس الانسانية العالية

وكذلك نذكر له قصيدته في دانشواي في باب شعره الانساني وكذلك قصيدته للامبراطوره أوجيني عندما جاءت مصر ونزلت في فندق لم يحس بها أحد ولم يشعر بقدومها فرد من الناس. بعد أن كانت قد جاءت مصر على عهد اسماعيل عند الاحتفال بافتتاح قناة السويس. فلقيت من الحفاوة ما كان مضرب المثل وما لا تزال آثاره ظاهرة خالدة من اثقال الدين المصري!

ونذكر كذلك قصيدته في زلزال ايطالية اذ بكى ضحاياه بكاء حارا. وبكى «مسين» وريجيو كما نذكر قصيدته في حفلة رعاية الاطفال وكذلك قصيدته في حرب طرابلس وقصيدته التمثيلية في ضرب الاسطول الطلياني لمدينة بيروت وغير تلك قصائد عدة لم نشأ ان نسرد منها شيئا لانها موجودة في الديوان ويمكن لكل من لم يظلم عليها أن يرجع اليها.

ونخرج من هذا أن حافظ كان من أهم مميزاته على شعراء العربية نزعته الانسانية واذكر انني مرة ابديت لها هذه الملاحظة فطرب وسر. وظل يتناقلها لاخوانه ويافأني يوما على ذلك بهدية من «الملاجة» تذكر بفخامتها وحلاوتها وهذا دليل على تمجيده لهذه الروح. واهتمامه أن يعرف الناس عنه ذلك وانني اقترح أن تترجم قصائده الانسانية تلك الى اللغات الاجنبية ليعرف له ادباء الغرب فضله كما عرفوه لمثل تاجور.

***

الرواية التمثيلية

وحافظ اول من أدخل الرواية التمثيلية في شعره. وسلك القصة في قصائده ويبين ذلك في كثير عن قصائده «كفادة اليابان» التي حكى فيها قصة وطنية وفي قصيدته التي انشدها في الاوبرا في حفلة جمعية رعاية الطفل وأولها

«شجى أرى ام ذاك طيف خيال
لابل فتاة بالعراء حيال»

وقصته الشعرية التي قالها في ضرب الاسطول الطلياني لمدينة بيروت وأولها

ليلاى ما انا حي
يرجى ولا أنا ميت

وفي كثير غير هذه القصائد.

نهضة المرأة

وكان حافظ من أشد أنصار النهضة النسوية وكان من أنصار قاسم أمين. ويكفيه أنه القائل لبنته الخالد

(الام مدرسة اذا اعددتها
لاعددت شعبا طيب الاعراق)

في قصيدته الخالدة التي أولها

كم ذا يكابد عاشق ويلقى
في حب مصر كثيرة العشاق

ويكفيه لكي يستحق الخلود انه ناظم القصيدة التي تعتبر سجلا لاشتراك المرأة المصرية في الثورة الكبرى والتي أولها

خرج الغواني يحتجبن
ورحت ارقب جمعهن

قيلت فيه. بعكس قصائد رثاء الشعراء الاخرين التي تسامح لاي راحل

وهذه ميزات من أهم الميزات في شعر التقييد.

***

وقد كان حافظ الى ذلك كله مجددا في الالفاظ والمعاني سواء في نثره أو شعره وهو يدعو الى ذلك في مقدمة كتاب البؤساء وفي كل فرصة.

وقد أردنا أن نوجز فلا نتوسع في بيان تحليل أدبه لضيق المقام

وتعرض كثيرون من الادباء لبحث ذلك في هذا العدد من السياسة: وما أردنا بهذه الكلمة الا مجرد لمحات خاطفة وخواطر مختلفة عما يجول في الخاطر عن أدبه. ونترك التفصيل الى مجال آخر.

وحسبي أن أضع الان القلم وقد أديت بعض ما يجب على نحو أديب خالد من أدباء مصر والشرق والعالم. ونحو صديق. كان نعم الصديق الوفي.

ان الحزن على حافظ أبدا متجدد. لان الفراغ الذي تركه بين اخوانه لا يمكن أن يعوض أو يشغل.

قد نردد الطرف حينا بعد حين في آثاره الادبية. ونقنع بذلك عن أدبه وعلمه. ولكنا قد فقدنا الى الابد حافظا كصديق وسمير. ومحدث. والبقاء للباقي على فناء الاكوان...

خمريا ته وغزله

اما خمرياته فعلى قلتها ظريفة ومعانيها مستطرفة. ومن ابياته الخالدة فيها وخمرة قيل اسم عصروها
من خدود الملاح في ليل عرس
مذ رأتها في العزيز متاما
وهو في السجن بين هم ويأس
انقبته الخلاص من بعد ضيق
وحبته السعود من بعد نحس

وأما غزله فهو قليل جداً. وقد سألته مرة عن سبب ذلك وابديت له ما لاحظته من أن اسلوبه كان يصلح للغزل كثيراً ولكنه أجابني (انني رجل بدأت شبابي في الجيش ولما رجعت لحياة الحرية انغمست روحي في شعر الوطنية فلم أجد متسعاً للغزل)

***

رثاؤه

يتفرد حافظ من شعراء العربية حتى المحدثين منهم بميزة قيمة في رثائه فهو لا يبكي ويستبكي ويلعن الحياة والاقدار. وعلا قصيدته حكما من فلسفة الموت ولكنه يعمد الى الراحل الذي يرثيه فيحلل شخصيته كما فعل في رثائه لثروت باشا ذلك الرثاء الخالد أو يقص أثره في الحياة كما فعل في رثاء سعد ومصطفى كامل ومحمد عبده

فرثاء حافظ تحليلي يختص بصاحبه ويخلد به. ولذلك تجد كل قصيدة لا تصلح الا لمن